

الأعمال
الإبداعية



مهرجان القراءة للجميع

أوراق شباب عاش منذ ألف عام

جمال الغيطاني



www.liilas.com

florist

الهيئة العامة
للكتاب

أوراق شاب عاش

منذ ألف عام

أوراق شاب عاش

منذ ألف عام

أوراق شاب عاشر

مغذ ألف عام

تحت إشراف

مؤسسة أبحاث علمية

(الطبعة الأولى)

www.liilas.com

مكتبات ليلاس

جمال الغيطاني



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الاعمال الإبداعية)

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التوعوية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلمتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

أوراق شاب عاش
منذ ألف عام
جمال القبطاني

الغلاف

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهنئى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الرياضية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التأليف: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة

« عثر علمائنا على هذه الأوراق أثناء عمليات تنقيب في المنطقة الواقعة شمال مصنع المراثيات رقم ستين ، حيث قامت منذ ألف عام مدينة كبيرة بحتمل أن يكون اسمها « المنيا » أو « أسبوط » ، وتخصص تلك الأوراق أحد سكان هذه المدينة . وقد كتبها أثناء الحرب التي نشبت في تلك الأحقاب البعيدة بين أجدادنا على ضفاف النيل وبين دويلة صغيرة لم يصلنا غير معلومات ضئيلة عنها ، وكانت تسمى إسرائيل . لكنه من المعروف أن هذه الدويلة قد اختضت ثمناً بعد ذلك وضاعت أخبارها نهائياً ، ونرى هنا مشاعر أحد أجدادنا في هذا العصر البعيد حيث يبدو أن وطنه كان يتعرض لبعض الأخطار ، كما نلمس أيضاً إحساسات أبناء هذه الفترة المليئة بالتناقض قبل انتصار الاشتراكية في كوكب الأرض كله ، كذلك أورد هذا الشاب مختارات من قراءاته ومن معالم العصر ، وقدمنا هذه الأوراق كما هي ، فيها عدا توضيحات بسيطة راعينا أن تكون في أضيق الحدود ، إننا لانعرف تفصيلات كثيرة عن كاتب هذه الأوراق ، لكننا لانغفلك إلا الإحساس بالاحترام لأحد المكافحين الأوائل المجهولين لنا والذين مهدوا لحياتنا هذه . »

لكن الصمت كان قاسياً ، لمحنا شعلة ضوء ، فعدنا نصبح .. طفوا
النور .. طفوا النور ..
« صفحة من المذكرات »

بلادي بلادي بلادي
لك حبي وفزادي
هنا القاهرة ...
لحظة صمت ...
موسيقى عسكرية ...
مصر التي في خاطري وفي دمي ...
أحبها من كل روحي ودمي ...
« الإذاعة في صباح باكر من الأيام الأولى ليوثيه »

اقشعر جسمي ، أغنية كتيبة .. رمادية تثير في نفسي انقباضاً مؤلماً ، كل
شيء في خطر ، خرجت بسرعة من حجرو الصغيرة إلى شوارع مدينتي
الضيقة ، كان الصباح صافياً جداً ، السماء براقية جداً لكنني أحست بالسماء
حراء كالدم ، مخنوقة ، شيء ما يرثي .. ما هو ؟ لا أدري . ربما النهر الكبير ،
ربما الناس ، الأطفال الصغار في زحامهم حول بائع حلوى أمام مدرسة ،
السافرون لحظة الوداع ، ربما همسات الفتيات في المساء ، ربما الأشجار
وميس الحشرات بين أغصانها ، هذا الجبل ، تلك الكتب . قال الراديو
قواتنا تقاتل في الخط الثاني ، طحنني السؤال كحجرى الرحاية ، أين مواقع
الخط ؟ لم تسعفني الحرائط التي لا معالم بها ، شرب مدير المكتب قهوته ،
تحدث عن روميل .. (قائد نازي عاش في النصف الأول من القرن
العشرين) . وتكلم عن « الحرب العالمية والعلمين » وتساءل أخيراً عما إذا

كانت مدينتي مظلمة تماماً ، المباني الكبيرة أشباح هائلة لا تنصح عن
تفاصيلها ، كان الصمت مستكناً في الزوايا والأركان لا انفجارات ، لا صوت
مدافع ، عدت أصغى إلى الراديو ، الموسيقى العسكرية ، صمت مضمّن مرهق
منذ الظهيرة ، لمح أحد الزملاء شعلة ضوء في نافذة علوية ، عندئذ صحننا
كلنا ... طفوا النور .. طفوا النور .. حيث موجات متتابعة من الهواء ،
أمام بيت قديم جلس رجل عجوز أصر على السير معنا كان يؤكد أنه قد رأى
أربع طائرات . لم يعرف بالضبط إن كانوا من طائراتنا أو طائراتهم ، انقضوا
ثم ارتفعوا حتى شك في أنه هو الهدف المقصود . ابتسمت في الظلام ، عدت
أصغى إلى الراديو ، صاحبت امرأة تأمر طفلها بالسكوت ، سقط وعاء نحاسي
في طابق علوي ، عامت رائحة غامضة في الفراغ ، قال اللذيع ..
.. وخاضت قواتنا معارك رهبة فوق الأرض المصرية ..

صاح شاب لم أره .. ما معنى ذلك ، أدت المؤثر ، لكن الصمت حاد
قاس ، علا اللذيع يكرر البيان ، إحساس غامض ، بأن ثمة أشياء هائلة
تحدث ، صحيح المسافة بعيدة ، أين سيناء من مدينتنا ؟ (كانت المسافة من
منطقة سيناء التي كانت في هذا الوقت صحراء تماماً إلى أقصى نقطة في الوادي
تعتبر بعيدة بمقاييس هذا العصر) لكنني شعرت بالخطر ، ثم ما الذي يحدث لو
أنهار سد أسوان ؟؟

ستغرق المياه أرضنا بعد ساعات ، عدت أصغى إلى الأصوات الخافتة .

— ليس من المستبعد أن يضربونا هنا ..
— إنهم كلاب عمى لا يفرقون بين شيء وشيء ..
— اقترّب مني أحد الجيران .. أشار إلى الراديو ..
— هذا يعني أنهم فوق أرضنا !!

حلقت في العتمة اللزجة الكثيفة « خرس الراديو » لم يعد قادراً على
إعطائي أي شيء ، ترى ما الذي يحدث ؟ ما الذي يجري ؟ أريد أن أعرف ،
فليحدث ما يريد هذا الغموض الذي يخنقني ..

كانت دور السينما تغلق في المساء أم تفتح أبوابها ؟ .. ثم قال إنه من الممكن للسينما أن تعمل في أيام الغارات إذا ما أحكم إغلاق اللبني ، ومنع تسرب الضوء ، قمت واقفاً وخرجت ، في العصر لم أستطع النوم ، كنت مرهقاً .. منهكاً .. قال ساكن الطابق العلوى ..

- ضربونا الأمريكان ..

ودت عليه امرأته البدينة ..

- صحيح بينزلوا البلاد ويفتحوا بطون الستات ؟

صاح الرجل ..

- يا وليه احنا رحنا فين .. والله يوم ما تحصل غوث أحسن ؟ تصايح أطفال في الحارة ، نظرت إلى الكتب المكومة فوق أرض الغرفة ، زحف صرصار فوق الجدار ولم أحرك أصبعاً ، ترى ماذا يفعل أصحاب في القاهرة ؟ الغارات لا تهدأ فوقهم ، لا بد أن حالهم أحسن مني ، كان من المفروض أن أنام حتى أستطيع السهر في نوبة المقاومة ، جفوني ثقيلة وذرات الرمل عملاً عني لكم أنا في حاجة إلى النوم ، النوم حتى أسهر ، حتى أرى شعلات النور التي تنطب ظلام المدينة ، لكنني قمت بسرعة ، خرجت إلى الطريق ..

« صفحة من المذكرات »

إن أشعر ببرودة أشد من برودة الماء ..

إن أشعر بحرارة أشد من حرارة النار ..

ويغرق جسمي في العرق بينما أعتر من شدة البرد ..

هناك غشاوة على عيني ولا أستطيع الرؤية ..

« شكوى الآلهة إلى إيزيس »

...

تسلل اللون الرمادي القاتم في غيبت إلى الفراغ ، غرقت البيوت القديمة في صمت ما بعد الغروب ، أسرع المارة إلى بيوتهم ، حامت في الشارع رائحة شيء يحترق في مكان ما ، عند ناصية حارة خفيفة رأيت زحاماً ، وقفت أسمع المذيع .. همس أحد الواقفين ..

- انسحبت قواتنا إلى الضفة الغربية ..

قديماً نصحني صديق أن أقض مضطرب بالشبة لأزيل آلام أسنان كان الطعم مرّاً قاسياً مثيراً للقيء ، لكنني مضفته في بطني ، جف حلقى ، لمع نجم كبير في الطرف القصي للسماء ، بدأ الجبل خطأ باهتاً على الناحية الأخرى ، وكان النهر يفيض هادئاً بلا ضجيج ..

« صفحة من المذكرات »

...

وفي هذه السنة نقص ماء النيل ، فشحت الغلال . ونزل الوياء في الناس ، فكادت مصر أن تخلو من سكانها . وكان النيل يفيض على الأرض فلا تجد من يزرعها ..

« تاريخ قديم »

أنا الملك سوريد ابن الملك اليودشير ، بنيت هذه الأهرام في ستين عاماً ، فليهدمها من يشاء في مئة سنة علماً بأن الهدم أسير من البناء ..

« التاريخ الأسطوري »

...

« وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » ..

« قرآن كريم »

...

كنت أعبر الميدان في البلدة ، كان خالياً غارقاً في عصر أصفر كتيب ..
زحفت عربة نقل كبيرة . فجأة .. ! لا أدري من أين جاء كل هذا العدد من
الناس ، أفندية أسرعوا إلى العربة ، امتدت الأيدي إلى حمولة البطيخ ..
خبطت الأكف على الثمار الخضراء ، تزايد الصياح ، حملت البيوت الواطة في
صمت ، رفعت عيني إلى دار السينا ..

نجاة الصغيرة تركب دراجة ، يقودها الشاب خفيف الدم حسن
يوسف .. وقد أخاطها بذراعيه .. فيلم شاطئ المرح .. أسبوع ثالث بناء
على طلب الجماهير ...

عاودني طعم الشبة المر ، الهواء ساخن كالماء الدسم ، العرق مثير ،
لزوج ، في المساء تميت أن يتزل المطر ، يتزل ، يتزل ، ثم يتزل . أكلني
الحنين .. الباردة الرطبة وأقيمت في سري لو نزل المطر فسأقف في الميدان
الكبير أتلقاه ، لن أجرى أبداً ، لكن هيهات أن يحدث هذا في أيام الصيف
المجدبة تلك ، كانت الساء صافية تماماً ، ورأيت مدينتي الصغيرة علة ضيقة
ملقاة بعيداً عن الدنيا ، وتذكرت أرض وافي الواق ، وجبال قاب ، والبحارة
المسافرين في بحار بلا شيطان ، والطيور الصغيرة الضعيفة المهاجرة التي لا تجد
قلباً حنوناً تأوى إليه ، عندما انقضى النصف الأول ، من الليل دقت الساعة
الكبيرة في بهو المحطة ، حملت إلى الطريق المعتد في جوف الليل .. من
يدري .. ربما سقط المطر في المدينة الكبيرة .

« صفحة من المذكرات »

اللهم بقدرتك أجر نيلنا ، وبلغ به المنافع ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وادر
لنا الضرع ، اللهم لا تؤاخذنا بما جتته أيدينا ، اللهم دعوناك كما أمرتنا ،
فاستجب لنا كما وعدتنا .

« من خطبة استقاء »

كان زحام الأوتوبيس شديداً ، نظرت امرأة إلى رجل يحاول الالتصاق بها
في حذر . في أقصى الميدان كانت مثانة الحسين تنصب رشيقة تطعن الفراغ ،
الرجال يدخلون الجامع في عثشوع منكسي الرؤس ، فوق الرصيف وقف رجل
بدين يصيح ملوحاً بيديه ..

— عندنا الدواء الشافي من جميع الأوجاع ، قرش صاغ واحد يا سلام ..
عندنا ..

بجوار باب القنفذ جلس جزار بدين ، قصير جداً ، قال لجاره
الحلاق ..

— بنينا كل شيء لكن بنقصنا تربية النفت . أي والله أهم شيء تبيينه تربية
النفث ..

من النافذة رأيت فتاة تنف في الشرفة المقابلة ، حملت في لحظة . مسحت
شعرها بيدها . ضحكت ، تنثى جسمها وأشارت إلى الطريق . عدت أدور
بمعنى في الحجرة وطعم الشبة المر يدور في فمي ، من أسفل صاح يائع
صحف ..

— الحق يا جدع .. حرقوا أمريكا في فينتام يا جدع ..
تمددت فوق السرير .. راح المساء يهبط رمادياً مقبضاً ، لم أتم ، ثان ليلة
في المدينة الكبيرة .. قلت للمستول الكبير ..

استطيع عمل أى شئ تطلبونه سواء فى بلدن أو هنا ... هز رأسه وقال :

- كل شئ وله وقت .. عندما نحتاجك سنبعث إليك ..

وعندما عدت إلى الطريق تذكرت بلدن والطريق إليها ، خفق قلبي ، لم أع من قبل معنى وجود كلاب فوق أرض بلادى ، شئ لزج حثير أهان رجولتى ، رجال أجلاف اقتحموا بيتى واغتصبوا أختى أمام عيى ، أسمعها تتأوه ولا تحرك ، تغوص أسنانى فى الأرض الصلبة ، لكن بلا فائدة (وهذا يؤكد لنا أن أجدادنا قد تعرضوا لمناعب مؤقته مع هذه الدولة الصغيرة التى لم تعمرك كثيراً) . نظرت إلى الخارج . الليل ينزل فوق المدينة هادئاً بلا ضجيج ، إن لم أصل إلى شئ الليلة فسأرجع إلى بلدن ، إلى العلبة الضيقة ، الثثرة على المقاهى ، الحديث عن النساء ، كلام زميلتى عن المسبك ، التخديعة ، السلوق .

إذا قلت لن أرجع فلإى أين؟؟

نظرت فى الساعة ، بعد قليل أنزل ، آخر اللبالي فى المدينة ثم .. لا أبقى . !

« صفحة من المذكرات »

يجب أن نجد حلاً للشبان الذين لا زالوا ينسكعون على التواصى . اقتحوا لهم أبواب معسكرات المقاومة الشعبية ... (صورة قتل شبانا يضعون أيديهم فى جيوبهم . ويجلسون على السور الحديدى أمام الأمريكين ؟) .

هجوم جرىء لثوار فيتنام .. مصرع ألف جندي أمريكى .
عل أفندى ابراهيم يشكر ضابط وجنود نقطة الناحية لمساعدتهم إياه فى ضبط جاموسه المسروقة .. قلهم الشكر .

مصرع جين مانسفيلد صاحبة أضخم صدر عرفته السينما العالمية ، انفصل رأسها عن جسمها !! ..

الأمم المتحدة تفشل فى إتخاذ قرار .

أين تقضى السهرة هذا المساء ؟

كفر ويبد أقوى ميد ...

(من صحف الأيام الأخيرة من يونيو)

أمر .. أزرق .. غطان لونهما أصفر . اللقطة المقابلة تضىء وتنطفئ .. المقهى مزدحم بالناس .. قال صديقى وهو يرفع نظارته التى انزلت على أنفه ..

- لا بد من الالتحام بالناس والتزول إليهم .. والتحدث معهم ومعايشتهم .

أكل قطعة خيار صغيرة مملحة ، شرب من كوب البيرة الجرجة .

- هكذا يكون العمل وإلا فلا .. ألت معى ..

صمت برهة .. سألنى فجأة !

- إلا قل لى . أخبار الثورة الثقافية اخضت هذه الأيام .. ألا تعرف ما وصلت إليه ؟

هزرت رأسى .. قمت واقفاً .. أحسست بطنين فى أذنى . أحد الزنابير التى تطن فوق حقول صعيدنا قد حاذى رأسى .. عدت إلى الطريق .. الشوارع حبل بفتيات جميلات ، وشبان مثانقين .. الفساتين قصيرة جداً والأرداف تخرج تحت القياش . أمام محل بيع العصير وقفت عربات طويلة يشرب أصحابها أكواب المانجو والفراولة .. تزايد ظمأى .. لكننى مضيت .. هل أبعد ؟ أم أظل ماشياً بلا نهاية ؟ ! أم أذهب إلى الفندق وأنام ثم لا أصحو إلا بعد ألف عام .. أعود إلى الشوارع طويلة اللحية .. قلبر

الأظافر .. زائغ العينين .. تحملق العينون في مستنكرة .. تمتد الأيدي
تضحضى .. البنابات غريبة لا تتسع لي .. الطعام ليس كما تعودته .. حتى الماء
أجد فيه طعم الشبة .. المر .. أشعر بوحدة .. بخوف .. أننى لو
تقلصت .. لو تلاشت فاعود من حيث جئت .

أشعلت سيجارة .. نفذت رائحة الدخان إلى أنفى .. كانت الأصواء
تختلط ببعضها في نهاية الطريق ، تميت في هذه اللحظة لو أن معى صديقة ،
حلوة ، رقيقة ، صوتها هادى عميق ، تومىء بذقن صغيرة ، حلوة ، يبدو في
عينها الخلوطين بريق يبعث الدفء في نفسى .. أنكلم وتتكلّم وأسمع ..
أنكلم وتخصى ، أخذت نفساً عميقاً .. ويدت لي حجرة الفندق بسريرها
الحديدى الأسود الضخم مقبرة هائلة ضخمة يمرح فيها ذراكونها ، يحملق إلى
الباب في إنتظارى .. يلعب نايه ، يقطر منها الدم .. لمعت أصواء السينا ،
غمايل المطرب عل شاشة التلفزيون .. لم أسمع ما قاله .. مثبت منهلاً ..
قالت امرأة لرجل عجوز .. « هو فاكرو الفلوس اللى بيسيها لى تكفى .. والله
باستلف عل العشرة صاغ عشرة تاتين علشان أكفى العيال عيش حاف
بس .. قل له ييجى أنا تعبت !! الحفل ثقيل عليه ومش قادرة أشيله
لوحدى .. »

« صفحة من مذكرات »

لو مت ع السرير ابقوا احرقوا الجسد .

ونظروا رمادى ع البيوت .

وشوية لبيوت البلد ..

وشوية ترموهم عل (تاتيس) .

وشوية حطوهم في إيد ولد .

ولد أكون بسته ولا اعرفوش .

(شعر عامى .. حجاب)

قلت لصديقى الذى التفت به قرب الفندق ..

— وهكذا أنا حائر .. لا أعرف هل أرجع أم أبقى ! ..

حملق في .. أسند كوب العصير الفارغ إلى ترابيزة الرخام

— إسمع .. مازن سافر إلى الاسماعيليه ،

— من مازن ؟

— أى واحد .. أنا نويت .. الجو هناك منعج فيه ما نبحث عنه ..

بللت شفتى بلسان .. ووضعت يدى على كتف صاحبى ، عيناه تلمعان

لعاناً غريباً ، سألتنى بكثيرين مثله .. بالتأكيد ستجى ليالى مشحونة بما أنا في

حاجة إليه .. قلت ..

— نلتقى غداً ..

— هات معك بطانية وزمزمة ماء .

— إلى اللقاء ..

لن أعود إلى الحجرة الضيقة .. إلى الفتاة التى تلوح بيدها . سأدور في

الطرق حتى يسحب الليل نفسه . وتتساقط ذرات النهار في الفراغ . ثم

أرحل .

المقتبس من عودة ابن إياس إلى زماننا

أولعت فالدنيا غير الدنيا والمدينة ليست بالمدينة ، حتى الناس بخلاف
الناس . لا أهل لفينهم ، لا كبير أو صغير . . عظيم أو حقير من أيام التي
أجهل مصيرها ولم أعرف مايفصلني عنها شهر أو سنين . وعندما بعث
أصحاب الرقيم من نومهم ليشاءوا فيها بينهم ، قال قائل منهم . .
كم نيشم ؟

قالوا لبنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبستم .
لكنني لم أعرف كم مضى على ولم أعرف لم جئت ؟ غير أن قلت لو انسلت
وراء الدهشة والغربة ، لو تحلكت مني الرهبة والغرسة الخوف ، لاضمت في
هذا الزمان الذي تمرك وطار فيه الجهاد ، فلأرغب واستمع ما يدور حولي من
عجائب وغرائب . والله لو رأها واحد من أهل زمان نشط جلده ومات رعباً
وراح على نفسه .



المقتبس الأول من اليوم الأول

تعاظم الزحام في الطريق حتى خلته يوم الحشر . كادت أتعثر في مشيتي . وصعدني الكثيرون حتى أن عماني كادت أن تتخلع . وكان الليل يرسل فما زال الليل يلى النهار . وكانت الأصوات عالية . رجال يزعمون وصية يتصاحبون ونساء يتهايمن ويتغامزن . . . وتحت لو أقعد في مكان بعيد أرقب كل هذا ، غير أن لا أعرف الطريق ، وكنت تعباً فقد بلغت في زمانى الأول سبعا وسبعين سنة ، لكننى لم أستطع إلا المشى ، إذ أن المارة يتدققون كثير النبل في عام تعاظم فيه الفيضان واشتد ، فجأة جذبني رجل من خراسى فكادت أنكفى . على وجهي .

— لو تسمح . . امش فوق الرصيف .

ما الذي جرى للناس فجأة . . لم أعرف ما يحدث ، في عرض الطريق وقف شباب ينظمون الرايح والجأى ، وفرات في الوجوه أن شيئاً عظيماً يقع ، وكان الليل قد نزل جامداً كالجليد ، خفض الأصوات فجأة فارتعب قلبي . تبعني من بعيد أصواتاً مكتومة هائلة كأن السماء تقع فوق بعضها ، ارتجت البيوت رجاً مهولاً ، كادت ضلوعى تتخلع من الخوف ، قال رجل .

الضرب جامداً ناحية العباسية .

رد آخر . . أوقعنا لهم طائرتين .

لم أرحم غير أن ما قاله أحسسته ، هناك خطر وكانت الرجل قد خفت من الطريق ، فاستندت إلى جدار قديم ، وتحت لو ألقي امرأتى وعماني ، لو بقي قائم كما هو .

انقطع الصوت فنزل هدوء كأنه السوق لحظة قطع رأس طفل صغيرة فوق باب زويلة . كأنه البلدة أيام توقف النيل عن الزيادة ، كأنه ، والله ، وجوه العوام المبثثة لحظة طواف المناذى معلنا عن مكوس جديدة من قبل السلطان . فجأة . . قرفعت السماء وسمعت أصوات غريبة ، ضحك رجل وقال : ولا ضحك ، سأل شاب في مكان قريب ، كذا تمام ؟ وأصغيت متعجبا وكان الليل قد أوغل حتى آخر عظامي .

(مناذى قلعة الجبل بفرع طلبته ، يتوجه بالنداء إلى أهل المدينة أهائى القاهرة . .

سيخرج الملك المعظم سيف الدين قطز .

بعد أيام قليلة لمجاهدة الكفار .

ونصرة الدين . .

فجند التار يهدون الديار . وهم خربوا بغداد وقتلوا خليفة المسلمين واستباحوا نساءها .

ومزقوا أبنائهم ولاطوا بأطفالها .

جند التار يهدون الأهل والديار .

ادعوا للملك المعظم سيف الدين بالنصرة على عدو الله وعدوكم .

يا أعراب البادية . يا نسل الصحابة والمجاهدين .

أوقفوا غاراتكم على قوافل السفر . تصالحوا فيما بينكم .

أخرجوا بدأ واحدة للجهاد .

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

يا ثيخان مرجوش ويولاقي والزروع .

يا زينة أهل المدينة .

يا أشجع رجالها .

الجهاد . . الجهاد .

وما النصر إلا من عند الله .

المقبي الثاني من يوم لا يعرف موقعه بالضبط من أيام المودة :

المفروض أن يكون النيل على أشده في الزيادة ، فالجو حار والتراب يطلع من الأرض وينزل من السماء مملاً الفراغ . وعندما يتكاثف الزحام يصبح المشي والوقوف شيئاً لا يطلق ، سرت في طريق هادئ حين إليه قلبى . ورحلت أفرج على النباتات المحيطة بـ . فجأة سمعت حس رجل ورائى فالتفت . شاب يقارب عمرى وقت أن جاء السلطان قاتباى إلى الحكم . كنت يومئذ في العشرين . أول العمر وفرحته . حاذانى في مشيى . وجهه نحيل . . . يتأبط كتباً . في عينيه حزن كبير كما لو مات له قريب . . لم يرد على السلام . قال :

— إنها هنا .

— من ٩٩

— سعاد !

توقفنا تحت شجرة ضخمة لا مثيل لها في هذا الطريق . كاد الرعب أن يملكنى . استعظت بالله . حررت في أمور هذا الزمان . يا بئى من أى عصر أنت ؟ ومن أى زمان حتى استريح وأعرف بدايى من منتهى . ألا يكفى نطق الجهاد وطيران الحديد . فأى سعاد هذه يا ولدى ؟

— إنها تعيش في كل قطرة دم في عروقى . من خلالها أرى الدنيا كلها يحلونها ومرها . لا أنام إلا على صورة وجهها . خضرة عينها وما منحني من أمان ، سعاد . . شعرها وهذه الوردة الصغيرة التى تتوسط مقعدة رأسها كأنها علامة تهدي المسافرين التائهين .

— أحبها حتى النخاع يا سيدي ومع ذلك لا ألقاها . . لا ألقاها . .

تخللت لحيتى بأصابعى . كدت أولى مبتعداً فعباه برفقان . . حتى خلته فقد العقل والصواب . أم أن هذا حب ذاك الزمان ؟

— كيف يا ولدى . . أليست امرأتك وأم عيالك ؟

— أطرق براسه . الحزن الرقيق يثعب من عينيه . . أشفت عليه ؟

له ما يريجه . . لكنى لا أعرف ما يجهه . . لا أعرف . .

— إنها لا تعرف أنى أحبها . إن كيان يذوب من أجلك .

صحت . . كيف ! رغبت في سماع جوابه . . وكان الليل حولنا غامضاً كبحر الصين . كأن أحسه لأول مرة ولم أرمثه في العصر الثانى . . زعق شئ ما في مكان بعيد .

— أن تعرف كما لا تعرف هى . كم أحبها ! كم عانيت من أجلك !

هذه الليالى الطويلة التى وقفت أمام نافذتها . ربما رأيت خيالها يلوح من وراء الشارة . . ربما امتدت تتناول شيئاً من فوق النافذة ، ربما استعذتى فخرجت تطل إلى الطريق . في أكثر من ليلة جرحنى عكرى الدائرية . وفي ليلة أخرى امسكنى رجل ، كاد يضربنى ، فما الذى يجعل شاباً يقف تحت بيت . أه لو رأيتى يوم أن قاتلنيها ، في الصبح لم يكن في الطريق سوانا . قلت لنفسى فلا كلمها ، فلا قل لها لفظاً واحداً ، ورحلت أقرب منها واقتربت ، وعندما نظرت إليها إلتقت عيناي بعينيها . . ساعتها التقت لسان أظنان الحديد ، قيدت حركاتى آلاف القيود ، توقفت لحظة كأنها تنتظر ودق قلبى وعبط حمل ثقيل في داخل ولم أقل كلمة فمضت ، وعندما اختفت ضربت وجهى بيدي ، لطمتنى بيوت الطريق في السكة القاسية التى لا ترحم .

حررت ولم أدر ما أقول ، غير أننى خفت عليه ، نصليت عروقه كأن المسكين لم يحدث شخصاً إلاي ، ووددت لو أرى سعاداً هذه ، كنت لشدة كلامه وقوة حجته قد أحسست بوجودها ، لكن أين ؟

— إذهب وأظليها من أباما .

— لا أفكر . . فزواج هذه الأيام صعب يا سيدي ، كما أن أبيها رجل قاس

لا يرحم ولو أخبره بما أشعر به لكفى . وأنقل جسمى وألقانى في النيل .

— منذ متى وأنت في هذا العذاب ؟

— لا أعرف .. كانت سعاد تسكن شارعنا ، كانت صغيرة كثرمة
السوسن ، ثما حين لما تعطلت وجسمي ، فجأة انتقلت عائلتها إلى شارع غير
الشارع ، غير أن حينها علق في قلبي ، رحبت لأرائها في كل مكان . لا أبيع
لها ولا نحس بـ . وهذا أنا أروح وأحيى في الطريق الذي تسكن في بيت من
بيوتهم .. ربما رأيتها .

— والله لا أعرف ما أقوله يا ولدي .

انطلق من قدامي وعندما حوت لم ألمح ، كان الطريق ساكناً وفيه وحشة .
تابعت مشيتي وأنا من الدهشة في أمر عظيم ، أي شيء هذا الذي يحسد .

ألمى قوة الجن الخفية ، يغلى حبه طوال السنين . لو أن ما يشعر به شيء
ملعوس لفهم وعرفت ، لو أنني رأيت سعاداً ، عاودت الشعور بوجودها .
كانها تطل على من الليل كله بأشجاره وأطياره ونيله وحتى وطاويطه وخيابه .
حرت فيها داخل عقل فجأة وصرت مملوءاً بالدهشة والرهبة . تبيت لو أجد
هذا الشاب أمامي .

« انتهى ذلك »

مقتبسي من ليلة كان الزحام فيها شديداً والشتاء لا زال بعيداً .

منذ أن قابلت بوابة زويلة وكان وجدت جزءاً من نفسي . أو عضواً كان
مفقوداً من لحمي وعظمي . لم أرقاباً مقطوعة تتدل منه أو أجساداً مخوزقة أو
موصطة معلقة به ، أما الميزنتان فنفس الوقفة لم تتغير . صارت سلوك الرواح
والمجيء كان استظل به وأدثر روحي بأشجاره . كانت قاهرني تبدأ من هنا
وتنتهي عند بوابة النصر . زعنق بائع جوافه ... ضرب مكارى حماره ..
وأمام دكان صغير استقر صندوق صغير يطلق الأصوات وما ترسله آلات
الطرب والغناء .. قلت لنفسي فلأسمع بعض ما نطق به الحديد . انبعث
أنغام حادة . اقترب البعض .. صوت رجل غليظ يقول إن العدو فتح نيرانه
صباح اليوم ، هز الواقفون رؤوسهم . ثم قال إن هجوماً جرى في الجنوب وإن
العدائيين اقتحموا مدينة عدن . وأن الانجليز مات منهم ستون ، لم أعرف إلى

أي جنس يتبع هؤلاء ، لكن إحساساً غفياً حس لي ، لا بد أنهم يتبعون إلى
الافرنج الذين عشنا طويلاً بشواطئ مصر زمن الأشرف قصوه الغوري ، إلا
أنه أرسل من التجار البحرية ما قطع دابره من البحر المالح كله ، سكنت
الصوت لحظة ، أذان الجميع مصغية ، كأنهم ينتظرون أمراً عظيماً أو شيئاً غفياً
عنهم ، ثم قال إن شخصاً من زعماء الفرنج قابل زعيماً آخر وأصدر بيانا وقال
إن مائة رجل من الفيتامية هاجموا اتفاقاً من عسكر الأمريكان وأبادوهم عن
آخرهم . فقامت الطائرات وضربت البيوت بقنابل الحريق وقتلت أولاداً
صغاراً ومات كثيرون .

وعجبت ! كيف لمائة أن يقتلوا ألفاً ، وزماننا . قالوا إن الكثرة غلبت
الشجاعة . لكن الأمور انقلبت في هذا العصر وتغير الحال ، وقف رجل يحمل
فوق رأسه قنصاً كبيراً مليئاً بالخيز يستد يد واحدة ويركب عجلة تقش في
توازن عجيب . وعاد الصندوق يكرر ما بدأ به . مشيت متسهلاً وكان الليل
ينزل أسود متعاطلاً يسيل كالقار . آه لو أكلهم واحداً وأحكي له عني . كيف
وجدت نفسي في عصر غير عصري وزمان غير زمان . أهذا السوء يخشى أو
لحسن حظي ؟ لكنني لو قلت ذلك لرجل أو امرأة لما عرفت ما سيفعلونه ،
وكان مستحيلاً أن أعثر على واحد من أيامي ، لعت ألف مرة الذين تمنوا أن
يعيشوا ألف عام ، أحسبت أنني تلاتيت في أي لحظة ، كنت تعباً مرهقاً
العطش يشعلكني ، مشيت بجوارى بنت مليحة نلبس لباساً قصيراً كشف عن
ركبتها ، وكانت تهر مؤخرتها هزاً عكياً ليلاً ، لو أعود شاباً استعدت باقة ،
ما الذي جرى للناس ، ربما هذا من علامات الساعة ، فجأة توقفت أمامي
رجل عجوز على رأسه طرطور أخضر ، مقوس الظهر حتى يكاد أن يلمس
الأرض بوجهه يرفع سيفاً خشبياً ، صاح بصوت غليظ وريقه يسيل ..

— وحده الله يا رجل .

— لا إله إلا هو .

— أنا حامى الحسين الشهيد . هل تفصده بسوء أنا أعرفك .

ارتعيت .. اهتزت لحيتي .

مددت يدي باسطاً أصابعي .

— رحم الله سيد الشهداء وزينة شباب أهل الجنة .

ممس . إني بعد أنا أعرفك . مضى مهتماً ولم أدرك قوله . وصلت إلى الشارع الكبير ، ملت إلى قهوة صغيرة أمامها عيال يزعمون وامرأة تحرق أمام رجل صابغة ، الرجل سابق من غير مصروف يرضى من به يا مسلمين ، حول كثير من يحملون إلى صورة امرأة . تعودت هذه المخيلة ، وكانت المرأة الأولى حلوة بيضاء تسأل الثانية الرفيعة كالرص .

— وصلتنا رسائل كثيرة يا مدام ، كلها تلاحظ أن فساتينك الأخيرة جديدة خالص .

رفعت حاجبيها وقالت . إنها تحرص على تغيير لباسها دائماً ، ثم قالت : مارايك في تسريحة شعري ، ألم تصلك ملاحظات عليها ؟

فكانت المرأة البيضاء : جنان . . . جنان . . . جنان . . . وتنايع الحديث وظهرت امرأة تشقلب ورجل يفتح فمه ويفلقه ويرق بعينه ، وجاءت شابة ورجل سمين يكرش طويل وبعض الفلاحين وكانوا يقولون كلاماً لا أفهمه ، غير أن البنت الشابة تفتح فمها وتغلقه قائلة : لازم نأخذوا حقوقكم . . . لازم ، وكان الرجل الديدن يزعم فيها — لا انتي بنتي ولا أعرفك — والفلاحون يصرخون والمركبات تطلق أصواتاً مزعجة وأشخاص يزعمون في ركن القهوة — هيه زنته في اليك !! — والبنت تصر على أن يأخذوا حقوقهم . طاف رجل ينادي على بضاعته ، وأطلت امرأة تهايل وتبني وتتخلع وترقص حاجبيها ، تنمض عينيها وتقول :

— الوله جه وتده عليه أنا قلت لا — وعاد الشاب يطل عليها مكرراً حديثه عن النيران والفرنج والقتيل وآلتي رأسى وضربني مشاعل على ظهرى بسيفه حتى تكسر . . . ومثبت في اتجاه الجامع الأزهر حيث بعض راحتي . ورأيت المرأة . . . الشاب النحيل . أه لو أجده . . . يكلمني عن سعاد . هل كلمها ؟ حتى الشارع الذي قابلته فيه ضللت الطريق إليه . . . أه لو أرجع إلى زمي هذه اللحظة . . . إني غريب حتى عظامي . . . تقطع قلبي . . . الحملة حول كهواء بللة بها الوياء . . . أه . . . لو عدت في زمان غير الزمان .

بدأ الجامع الأزهر . . . جلس أمامه فتية أغصى برؤسهم وبنواهم بصوت مبحوح نفث إلى كلتي .

و قانطلقا حتى إذا وكنا في السفينة حرقها . قال آخرتها لشرقي أهلها لقد جئت شيئاً فإمرأ . قال ألم أقل لك أنك لن تستطيع معي صبراً . انتهى ذلك .

وهذه نبذة فيها عجائب وموعظة للمؤمنين :

.. وإذا تقوم القيامة . ويصطف الخلق صفواً . طول الصف مسيرة أربعين ألف سنة ولا يعرف الواقف أباه ولا أخاه ويرشح العرق ويأخذهم على قدر قنوسهم . فمنهم من يأخذه إلى عنقه . ومنهم من يعوم فيه عوماً . ويطول الوقوف ويشد الكرب . فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم فسأله أن يشفع فينا فيأتونه فيقول : مالي وللشفاعة . . . ويذكر ذنبه . . . فيأتون نوحاً فيقول كيف لي بالشفاعة وقد أهلك الله بدعوى كل من في الأرض . فيأتون إلى الخليل صلوات الله عليه ويذكرون له الحال فيقول مالي وللشفاعة وقد قتلت نفساً . فيجيئون إلى عيسى ابن البتول فيقول إن أدلكم على صاحب الشفاعة الكبرى انطلقوا إلى ابن القاسم بن عبد الله خاتم المرسلين . وإذا يشكون إليه حالهم يبكى النبي عليه الصلاة والسلام فيأبى العرش ويخر ساجداً فينادي يا محمد ليس هذا يوم السجود فسل تعط واشفع تشفع . فيقول يا رب مر بالعباد إلى الحساب بعد أن اشتد الكرب . فيجيب إلى ذلك وينادي . وعزى وجلالى لا يجاورنى اليوم ظلم ظالم ولا جور جائر . ولا تقص من الشاة القرآن إذا نطحت الشاة العجفاء . ولا سألن العود لم خدش العود ولا يدخلن أحد النار أو إجنة وفي قلبه مظلمة . قال كعب الأحبار لو وجد من عمل مثل عمل سبعين نبياً لخشي في ذلك اليوم .

لحظات شديدة الحزن تخللت أحد أيام العودة :

الزحام على أشده والخلاقي تضطدم ببعضها ، البساتين يتخلعن وينظرون نظرائهن الجانبية ، بالغ بسومة يحيط حافة صينية بكين صغيرة . رجال المستهم تخرج من أفواههم . خرجوا فجأة من زقاق جانبي وهم مسمكون برجل حليق الشعر رفيع العنق جاحظ العينين . يضربونه على عنقه ويصرخون . الحرامى . الحرامى . لحت شاباً صغيراً يرمى الناس كأنه يبحث عن شيء ، إقترب منى .

نصور يا سيدنا الشيخ إن أبى خرج ولم يرجع حتى الآن ! تدافع الناس حولنا وكانت أيام زيادة النيل ولى والصيف يموت وعينا الشاب غير مستقرتين ، ترى أين راح أبوك يا بنى ؟

— سافر إلى البلدة ليحضر نقوداً ، مرتبه لا يكفيه وإخوتي يعطهم أبى أما أنا فأعمل لأساعده ، ومع ذلك فقروشنا قليلة ، دائياً نطالبه بنقود ، أمى نطالبه ، إخوتي يطالبونه ، ما أعطيه له لا يكفيها . أبى عجوز يا سيدنا الشيخ وطيب جداً ، لم يعرف السهر ، لم يأكل اللوز المكشور ، لو تدعو يا سيدنا سيحود إلينا ولو يوماً واحداً من هذه الأيام البعيدة ، عندما كنا صغاراً عندما يدخل علينا طعام العشاء ، لو يرجع هذا اليوم الذى دفع فيه مصاريف أخى كان سعيداً . . . كاد يطير من الفرحه لأنه دفع المصاريف . لأنهم لم يظفروا أخى . .

كان ما قاله غامض . غير أن أحسنت ما فهمه ، أنا لا أرغب فى عودة يوم بل أتمنى عصري لاستريح ، أرى أخى يوسف الزردكاش وصهرى قرياس المصارح . أنا لا أعرف كم من الوقت مضى على . . . أحياناً يحيل لى أننى فضيت القلب عام أسبح وأشتم وأرى ومرة أغوص فى عمق حقيقى بعيد ولا أعرف حقيقة جالى وأكاد أروح على نفسى . آه من بعد الزمن الذى لا أفهمه . .

— فى الأيام الأخيرة كنا نشاجر ، أخيراً يا سيدنا — ترك أبى البيت عدة مرات . عندما قابلته هائلاً على وجهه فوق كوبرى الجامعة . نظرت إلى عينيه العجوزتين . . . دق قلبي مرتعباً . . . أحسست به لكم هو عجوز بانحناء كتفيه . . . نام فوق الأرض لكنه لم يشأ ذلك لواحد منا وما نحن نجازيه . . . تسبب فى طرده . .

شق الطريق رجل ملون الوجه بالصبغة . . خلفه عيال يحملون خشية عليها رسم رجل يعض امرأة . . يوزع ورقاً صغيراً ، — هل سمعنى يا عم الشيخ ؟

قلت برثله . . وأنا لا أعرف إن كان النهار يتقدم أم يرجع فأرى الشمس تطلع مرة ثانية ، بل اننى أرى والدك أمامى ، قال لو ألف الدنيا ، أحكى للناس عن أبى ، لقد شعرت بمدى جرمى يا سيدى ، بأننى حفيربأننى صرصار عندما رأيت حالة أبى . . كان جائعاً لم يأكل ، أخذته وأكلت معه وعدنا إلى البيت . لكن لم يمر يومان حتى تشاجر مع أمى . . فسافر إلى بلدنا فى آخر الصعيد ، بيع تخللات يملكها ، ويرجع ليسدد ما عليه من ديون .

نسمة هواء ، من أى خريف موبوء جشت ؟ ما هذه السنة التى لا أعرف لها فصلاً من شهر . . عينا الشاب مثل يدموع غزيرة كالتيل إذا تزاخم ماؤه وراء سد الخليج قبل فتحه . .

قال إنه سيغيب يومان لكن مضى شهر ولم يرجع .

— سافر يا بنى .

— ربما وجدته لا أستطيع أن يفصلونى من شغل .

كانه يقول لغزاً ، تعاطف الزحام من حولنا حتى كاد أن يجرنا ، قلت له أرسلنى مكتوباً ، فقال إنه لا يعرف أحداً من أهل البلدة ، فسند خروج أبيه منها ماشياً على قدميه ثلاثين عاماً ، وأبنائه لا يعرفون واحداً منهم . . خبطت كفاً بكف ، وحررت فيها أقول !!

— ولن يعرف أحد أبداً ، أدياً أين ، كنت أحبك ولم أشعر بك إلا بعد ضياعك . لو أراك لحظة واحدة ، ويستهي كل شيء موجود ، حياتنا لم تعطنا الفرصة لنقول الكلمة الحلوة لنعرضا ، سأقضي العمر باحداً عنك .

طبطبت يدي على كتفه ومرت الناس من حولنا مسرعين وكان الوجود فيه صفرة وختقة وكان الصيف جاء بكل ثقله في لحظة .

— ربما جاء باولدي ،

قال ربما قتلوه ياسيدنا ، ربما وجدوا في شخصه الفقير ما يسد دين دم على عائلته لعائلة أخرى .

— لا حول ولا قوة إلا بالله العمل العظيم ، ينبغي لقاء أبيه ولا يلقاه ، لماذا لم تقبل له ما ترغب ، هل ستجده ومن يصغي إليك في هذا الزحام ، حملني إلى طويلاً وانطلق فجأة ذرت برأسي فلم ألحبه ، والله لو استمر يوقف هؤلاء الناس واحداً بعد الآخر فلن يحس به أحد ، الزحام وتتابع الرجوة يأكل ما عظم وما صغر ، اشتدت الحيرة بي ، وانطلقت في نسي حجرة من حجرة أو أحكى لواحد من الناس ، عللا التراب وترنحت النساء وطالعت في العيون شيئاً كأنه موجه لي ، يقول في صمت . . . إخرس !! ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً .

« انتهى ذلك »

لحظة واحدة لم ير بعدها الشيخ العجوز الذي اعتاد التجول في طرقات المدينة .

وأمام الناس كلهم استوقفتني امرأة وكانت تمسك في يدها قلماً ، في يدها أوراق ، واستعدت بالله وسحطت عليها .
— كيف تكلمين رجلاً لا تعرفينه .

— يعني معرفة رأيك . قل لي اسمك واسأل ما تحبني به . صيناي متعبان . . . البرد حاد كما أن صدرى يضيق وتنزل عليه كثمة . والله لا أعرف ما تريدون . الغيظ في عينها لكن الشيق والحيرة يثقلان نفسي ، ترى إلى أي جيل من النساء تنتمين ، أحقي أنك من سلالة حواء . . وفي أي الأعرام نحن ؟

اليس لك رأي في رجوع الكرة أو عدم رجوعها ؟

زمت فيها ، ثبتت نظراتها على ، حملني فينا شاب من رأسه ثم مضى . . . المجذوب حامس سيد الشهداء يعيش متحياً رافعاً سيفه ، فبجأة انفجرت أساريرها :

— أه . . . أنت ضد الكرة لأنك شيخ . . . يعني أكثر معرفة رأيك . . . ما اسمك ؟

قلت متهملاً . . . والبرد ينفذ إلى عظامي ، حتى الشتاء ليس بالشتاء .
— محمد أحمد بن إياس . . .

تحرك قلماً فوق الورقة . . . نظرت إلى بلعشة .

— ألم تسع عن الأهل ؟

— لا أعرف شيئاً عن هذا ؟

سنة ربما لحسائة عام . . . حملت في . . . قلت لا تتعجبي . . . فأننا لا أعرف ما تقولينه ، تخيلت عينيها وقالت : ما اسمك . ؟ أعدت عليها فتقوس حاجبها .

— إنني أعرفك ؟

وكان الليل قد رمى نفسه حولنا . . . تغير لون وجهها ، كأنها غير التي كانت تقف أمامي ، وكان لسان ثقبلاً ورأسي مدفون ، كأنهم يحرقونني على شعوع ضعيفة .

سألتني :

— ما الذي أتى بك إلينا ؟

أيام الرعب

الاسم بالكامل : محروس قياض سلامة .

تاريخ الميلاد : ١٩٤٥/٥/٩ .

الديانة : مسلم .

الوظيفة : رسام بالمؤسسة العامة .

عمل الإقامة : الجمالية ، كفر الطباعين .

رقم البطاقة : ٨١٦٦ .

فصيلة الدم :

تجددت هذه البطاقة في يوم ٦٨/١١/١٨ .

... حارة الوطاويط ، البلاط المضلع ، الجنودان الرمادية المتسخة
بالرطوبة ، امرأة صبور ترمش بعينها .. بنت قشبي متهملة تحمل حقيبتها
المعتلة بالكعب المدرسية .. إنحناءة خفيفة ، عيناها جيلاتين .. قشر قصب
ملقى عند زاوية الحارة .

قلت : لا اعرف وقلت لها أعكدا توقفين الرجال ونسألينهم عما يفهمونه
ولا يفهمونه .. قالت : هذا عيشي . عانة تسألني : لم جئت ؟ غير أنني لم
أرد .. وثابتت مسيرى . حينئذ في نفسي إليها غير أنني ابتعدت . ارتعشت
أمناء وكان الطريق قد نزلت عليه خدعة وظلمة ، ثلاثي كل أثر لصوت
الصناديق . ومنظر المركبات المندفعة للدهس . ثنيت ألا أرجع . أن أخل
أبتعد . لكن نفسي اشتاقت إلى الناس . لكن مع من أتكلم .. كيف أفهم
أمورهم ! إلى أي العصور والأجيال ينتمون ، نظرت ورائي كأنني أغوص في
بئر القلعة السحيق ، ومن خلال الظلام تخيل لي أنني سمعت صوتاً له صدى
عميق ، وتذكرت الفقيه الأعشى العجوز الجالس فوق الرصيف . وكان يتلو
بلا ملل : « هذا فراق بيني وبينك .. هذا فرق بيني وبينك » وكنت من التعب
في حال فأغضضت عيني ..

محمد يشابه كاملة فوق السرير .. كأن الباب له رأس وذراعان وعينان
ترقبانه .. قام واقفاً ليتأكد من إغلاقه مرة أخرى .. رائحة الرطوبة في
أنفه .. النافذة الوحيدة مغلقة .. لن يقف وراءها أحد سيلفت أنظار
الناس .. لكن ! عندما يحرق الليل .. عض شفتيه .. مد يده داخل
الجاكete .. لكم يبدو مقزوف الخطاب الذي لم يصله إلا الأسى متأكلاً ..

ولدنا الغالي محروس فياض ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. بعد السؤال عن صحتكم تعرفكم
بأننا طيرون لا يقصنا سوى رؤياكم ...
أما بعد ...

فما كنا نحب إزعاجكم ، لكنك ولدنا ونخاف عليك كما نخاف على
أرواحنا بالتمام ، فتعرفك يا محروس إن عويضة طلع من السجن ، وجمع عليه
مهران واد مخلوف وبالمثل الدقل ولد الخويج ، وعلمنا انهم سهرؤا مع بعض
كأم مرة .. وقال عويضة إنه ما دام أبوك مات ميتة ربنا يرحمه الله ويوحنا
أجمعين ، يبقى لازم يأخذ تارة منك أنت .. أبوه منك أنت يا محروس ...
وحلف على مصحف انه لا بد يدور عليك ولو كنت في آخر الدنيا ، وقام طلق
دقته ، وقلب شال عيامة وحلف ما يخلق ولا يعدل الشال إلا بعد ما يشرب من
دمك ، واتفق معه مهران والدقل وسافروا من أسبوع فاصدين مصر .. ولم يقدروا
راجل في البلدة أن يجتمعهم فأتت تعرف عويضة وهو على حق في نظر مشايخ
البلد وأكابرها .. ونحب اطمئنانك فنقول انهم لا يعرفوا عنوانك ، فنحن لم
نعط عنوانك لأحد من أهل البلدة لأنهم ناس ألتتهم طويلة كما تعرف ويخافوا
من عويضة أشد الخوف .. فنحن لم نعط العنوان لأحد البتة .. فخذ بالك من
نفسك ، حماك ربنا ، ومن عندنا يهدوك السلام أنجالنا فرداً فرداً وصديقك سلام

التفت وراءه بسرعة ..
التحني الضيق خال .. لا أحد ..

صوت تلايد صغار من داخل المدرسة ، يقرأون في صوت واحد ..

رجل ..

صوت رقيق لطالب صغير ..

امراة ..

مصلحة السمعة والموازين ...

بائعة النجيل أمام دكان عم محمود السك ، عند باب الحارة أبطأت
خطواته .. جامع سيدي مرزوق مغلق .. لن ينظر وراءه قضيان ناقلة
الضريح حديدية سمراء باردة كالغواء المحيط به .. أغمض عينيه .. بسم الله
الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ...

صبي صغير يلحرج طوقاً حديدياً ، بائع كرنب ، رجل يرتدي جلباباً
صوفياً قديماً ، فتاة سمراء تعبر الطريق على مهل ، لم تتوقف عيناه عند رجليها ،
عض شفتيه ..

منزل رقم ... إلتخبوا ... فريق النسر الذهبي يتحدى الشواكيش ،
سينا الكواكب ، هذا المساء .. إعلان تقديم تآكل ورقه .. مربع رقم ١٢٦٥
فرن الحاج نصيف ..

قبل أن يدخل المدرسة في الدور الأول ، قبل أن يفتح الباب قبل أن يخرج
المفتاح ، أطل من باب البيت القديم ، رائحة غسيل يا حسن يا حلو قوي ،
هل رأى بائع الخس من قبل ؟ هل صادفه في الحارة ؟ نعم .. نعم ..
بالتأكيد .. رائحة بصل يقلى في زيت .. أم سيد الحلوة تنثر غسيلها ، تومي ..
برأسها لست عطيات ... الشرقات متقاربة متعبة .. وحدة العصر الشتوية
وجوز رمضان النهارى يغلف الحارة .. صباحت أم يوسف ... يا بت ..

لا أحد ..

خصوصي قربينا ابراهيم خليفة وأخوه فضل الله ، كما أن صاحبك السيد المهدي يذكرك على الدوام ، ودائماً في سيرتك . وكل من بطرفنا يهديك السلام ، والسلام ختام .

جـدك
سيد أبو الغيث

دائماً وجه أبيه مهموم ، كان رجلاً نحيلاً رفيعاً كعمود البوص أسمر جداً ، عيناه ضيقتان ، إذ يرجعان من السوق آخر النهار لا يجلس مع رجال القرية سواء من عائلة السباعنة ، أو عائلة الضيع ، يلقي السلام ويحد خطاه ، عندئذ يضطر محروس إلى الجري مسكاً طرف جلبابه حتى يلحق خطواته ، ينظر وراءه ، نظرات الرجال معلقة بهما . في مرة سمع أحدهم يقول ، مسكين ما دام عويضة خرج من السجن يبقى أجله قرب . ود شيخ كبير يومها . يا خسارة والواحد ما قادر يعمل عشائه حاجة وأصل .. يتضاعف الغم فوق الوجه التحيل . يلغى إلى محروس .. يحد يده ، تلتف أصابعه الكبيرة حول اليد الصغيرة . بسرعان . الوقت عصر . والطريق من المدرسة إلى بيتهم قصير كله تراب .. فوقه غبار ويرد ومكون .. بوك .. بوك .. بوك .. وابود الطحين ينثى آخر ما في جوفه ، يسرع رجل يركب جاره .. تنتشر في الجو رائحة التوت . عند باب المدرسة يقف ينتظر أباه . قال له : ما تشيش لوحدهك .. تتفغل رائحة التوت إلى دمه .. حوم في الفراغ طير . صوته كالضحك . كالكاء .. لم يعرف بالضبط . نبحث كلاب عالية عند أول الطريق المؤدى إلى البيوت ، رموسها عالية كالغيلان ، يحى أبوه . يسرع والكتب ثقيل عنقه . تبدل فوق صدره . عيناه مغلقتان بالشمس النازلة . تروح الشمس .. ربما لن ترجع .. لن تعود .. صحيح ! من يضمن رجوعها مرة ثانية . تذهب ولا تحى .. عندئذ لن يضىء القرية بصيص ولو من لبة ساروخ . سيحس أبوه نفسه في صومعة الغلال المثقوبة المخاوية ويضمه إلى

صدره ويطحها عويضة وتختلط الألوان .. الأزرق فوق الأحمر فوق خضرة شديدة السخاء . من آخر الطريق ترتفع الأرض قلعة كويرى خشبي صغير يعلو مجرى الماء . فجأة ظهر !! تصلبت قبضة أبيه . ارتجف قلبه كحمامة صغيرة جداً ابتل ريشها بماء ثلجي . نفذت رائحة التوت المعفوس في اللين الرائب إلى صدره . توقف الأب . اقترب منها طويلاً . عريض المنكبين . كبير الرأس . على كتفيه عباءة سوداء . تحتها قفطان حريري . ربما لمونه أحمر . أزرق . أبيض ، أما انتفاخ العباءة فلم يستطع أن يخفى استطالة البدنية ، رائحة عطر تفوح منه ، هس الأب ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن عملاً رسول الله انفرجت شفها عويضة الخليطين . ظلنا هكذا لحظات ثم تشكلت فوقهما ابتسامة لما لون كيزان الذرة الجافة المهرومة .

— له .. له .. له .. يا بن سلامة وفك ما قرينش ..
لم ينطق أبوه ، لم يرد أما الشمس فتزلت صامتة بعد أن غارتها بلا سند .
ها .. وده ولدك محروس ! محروس ! بتوديه المدرسة كمان .. والله عال والله عال .. !

عويضة ينقص في عين النهار .. يختطف الطفل وفي قلب غيطان الذرة يخفيه . يرسل إلى أهله طالباً الفدية والمهلة يومان في الثانية الأولى لأول دقيقة اليوم الثالث يصل الرأس الصغير مقطوع إلى الأهل .. يعلم صراخ الأم . عويضة يختطف أولاد البلدة . لا أحد يسأله .. حتى الأم التكل لا تجرؤ أن ترفع عينها في وجهه .. لا أحد .

لم ينطق الأب ، ضم محروس إليه ، في الليل نبحث كلاب فوق البيت المجاور ، حامت رائحة خيز ، الليل فوق البيوت كالصية كالجبل ، كالجبانة . أما وجه الأب فصامت لا ينطق ، صفحة كرامة بيضاء ، قال محروس والليل يغزو قلبه الصغير :
وساكت له يا بوى ؟

عض شفته ، ضرب جدار الصومعة الفارغة بيده ، اهتز جسمه ورأى الصغير أباه جداراً ميل . غيط فصب ينكسر تحت زوبعة ، مركب يفرق ، جل برك تحت حمل ثقيل . . . سكنت ، سكنت ، قال :

ما فيش حد في البلد يحسني منه وأنا عسرى ما قتلت حد . . . عسرى ما رفعت ديوس إبرة في وش واحد .

في السواد خلق إله ، يدعشنه قبضت قلبه ، ضغطته . . . أمال طالبك إيه يا بوى ؟ طالبك إيه !!

في الصباح كانت الشمس عالية خارج البيوت ، الأب تقدم في العمر ستين . عند الجسر قابلها الشيخ محمود ناظر المدرسة .

ما تناسي في البندر يا واديا محروس .

من نافذة الحلازونة الخلفية المنسخة رأى أباه يقف فوق الجسر وحيداً . . . ثار الغبار . . . اختفى . ثم ظهر . التوى الطريق ، دمت عيناه وكان الرجال من حوله يترثرون .

— طالبك إيه يا بوى ؟

— أنا ظلمت من صغرى يا محروس يا ولدى ولقيت الناس بشاور على وتقول اني مطلوب لعيلة عويضة ، أبوى قتل خاله من أربعين سنة ، قبل ما تولد وقيل ما هو ييجي على وش الدنيا . حتى لما كنا عيال صغيرين كان دائماً يقول أنا اللي خبط جنيارك يا ولد سلامة أبوك قتل خالي ، وأنا اللي خاعد تاره . أمه بخيته دائماً وراءه من صغره . . . دائماً تقول له رقبنا في الطين وسط البلد . خالك ما تعموش مينم لغاية دلوقتى . خالك دعه راح هنر . المهم يا بني إنه كبير . . . سرق جاموسة وانجس . . . خرج ، برضه وراء أمه بخيته . كان يقول لصاحبه انه جيموتنى بطريقة ما حصلنش . جيموتنى وأنا عند الجسر ، باصص لي وهو ساكت . ييجي يحيط على في الليل . أصله مفتري

ما بير عاش حرمة حد في البلد . كل ما أقابله ألاتيه يقول لي لسه . . . لسه يا ولد سلامة . الحقيقة يا محروس أنا عدت أخاف عليك منه . . . دا وحش ما يعرف أبوه ولا أخوه . إنت شايف حد في البلد قادر يرفع عينه فيه . حتى الشيخ صالح لما رحل له قال لي وأنا جعل لك إيه ديه شريعة البلد يا فياض . ويعدين هو عمالك إيه . . . عويضة لغاية دلوقتى ما هوش ناختك . أنا قلت في عقل يا بني أبحتك صوهاج تعلم هناك ويعدين تروح مصر . أنا هنا عارف ديتها لكن ذنك انت إيه ؟

قال والليل يحل كتفه ويبتلي لعابه بطعم السواد . . . ولية أنا اللي حوت عويضة ! هو راعيني أنا بس ما هو موقف البلد كلها عل رجل . . . مشايها جالوس طين حد قادر يقول له كفاية . . . حد قادر يقول له انت بتعمل كده إيه ؟

ربما يجلسون الآن في مقهى ويمشون في شارع من الشوارع . أسبوع كامل لغوب نظراتهم الطرافات وتضحص الوجوه ، والملاح بحثاً عن محروس ، محروس فياض سلامة . أسبوع ولا يجس . ربما مز بالقرب منهم ، مشى بجوار فلفل يتامون به ، في أى مكان هم يا ترى ؟ في أى بيت ؟ أى حجرة ؟ فوق أى سرير تخفق قلوبهم لليوم الذى تنعكس صورته في أعينهم ثم ينفضون عليه ! عندئذ يحلق عويضة لحية . يعدل شال عمامته ، يذهب إلى أمه في البندرة . تقيم ماتم الحال الذى لم يرتفع صوت نائحة عليه من أربعين عاماً .

دار في الحجرة ، نقلت الرطوبة إلى عظامه ، فرقة بومبة في الخارج ، تصايح أطفال صغار ، وحوى يا وحوى . الجميع يخرجون إلى الطريق بعد السكون الجامد الذى نزل فوق البيوت . أثناء الانظار تتناول ما تبقى من الرغيف وقطع البطاطس الصفراء الصغيرة التى تقطر زيتاً ، استد ذراعته إلى عمود السرير الحديدى ، هذه اللحظات الأولى من الليل ، بداية السواد ، البرد ، لا يطبق البقاء في هذه المنذرة الباردة الصماء الجدران . الحيل برطوبة

تقوس العظام ، تأمل مقدمة حذائه . . بلاط الحجرة المربع الأصفر القديم
الذى تكسر وتشتق ونسك عن بعض عمارى رفيعه سوداء . . السقف العالي
والأعمدة الخشبية التى تحملها ، لم يعد لها من قبل ، كأنه يدرك لأول مرة أن
سقف الحجرة يحمل على تلك الأعمدة الخشبية ، ليس السقف فقط ، حصة
أدوار كبيرة . فى كل طابق أبرتان ربما . ربما أحد سكان البيت قريب ، قريب
أو معرفة لعويضة وجماعته ، ربما بأويهم عنه . . لكن ! لا . . ليس معقولاً ،
بالأكيد كان التقى بهم صدقة . إنه يجتاز الباب الخارجى فى اليوم الواحد أربع
مرات ، يخرج إلى دورة المياه بالحوش ست أو سبع مرات ، صحيح لا يفتح
باب المنذرة حتى فى الصيف فهو يعرف تماماً ما سيفعله رجال البيت عندئذ .
الأعزب الوحيد فى البيت كله محروس . لا ، بل فى الحارة كلها ، صحيح .
من يسكن بمفرده فى الحارة كلها ، عظمة كفر الطباخين ، عندما زاره إبراهيم
أفندى زميله سأل الكوجى . سأل الأولاد . . قالوا له :
أيوه . . أيوه . . محروس أفندى أبو نضارة . . ثمة حداثر . . غمرة
حداثر . .

وقاده من يده ولد صغير . جاء إلى المنذرة . ألن يسهل هذا مأمورية
عويضة . لو أنه دار على حارات الجهادية كلها . سأل أى طفل صغير . .
محروس الصعبدى أين ؟ أيوه يا عم . . جوه يا عم . .

خرجت أنفاسه ساخنة . ضرب راحة يده اليمنى بثقبته اليسرى الباب
صامت يصغى إلى زفراته المكتومة . . لم يدرك مرة راح وجاء فى المنذرة . لم
يدرك كم ألقى متر قطعها فى هذه العملية ؟ فاسها بخطواته . . ست إن أفسح
الخطى . . سبع إذا مشى على مهل . قال ركن المرأة فى جريئة قراها منذ أيام
أن ربة البيت التى لا تغادر دارها تقطع فى اليوم الواحد سبعة أميال . شرع فى
إشباة ما لبت أن تلاحظ . . كتلة الخشب خرساء . . القفل وحيد وليس
متيناً . . لا بد أن يشتري واحداً إضافياً . . أما النافذة للطلعة على الحارة
فالفخيان الحديدية لا تدع مسافة كافية للمروء من خلالها . . لكن ! لكن .
لا يمكنه فتح الضلفة الخارجية . . عويضة دائماً يعمل مسلماً . عويضة تاجر

مخدرات . . عويضة لا يتحرك فى البلدة إلا وتحت عيادته كارل جوستاف . اما
فى المدينة فلن يخلو من فوحة سمعتها ٩ ملل أيداً . . أيداً . . ربما تسلبت الفوحة
من بين القصبان . . السرير فى مواجهة النافذة رأساً . . ترى فى أى مكان
يبعد عنها ! المساحة ضيقة وشطة المعلوم الكبيرة إلى جانبه تكمل الفراغ . .
لو وضعه بالعرض لواجه النافذة أكثر . لو شدد بالطول فهذا العن . فليتركه كما
هو ولينقل المرنى من فوقه إلى تحته . مكان ضيق محكوم تحت مستوى النافذة
يكثير . فلتقل الفوحة السوداء سعة ٩ مللى ، فليطل المزير . . يدركه . . أما
الباب فلا بد من قفل إضافي جديد . . لو يسكن جاز أمامه . لكن الفناء
لعين . محيف . . مظلم . . رطب . . خال حتى من لبة ساروخ . المصيبة أن
الدورة فى الطرف الآخر منه . حتى قيل أن يحرق عويضة كان يبدو موحشاً
كالجبانة . . كالحراية . . عدا هذه المحطات الضئيلة التى تبدأ عندما تخطو
سلوى عتبة الباب بقدمها وتقف أمام باب المنذرة وتصبح بصوت لين كأنه
مضغ الضاح أو مدافى البيش فور أو الأيس كريم فى يوم حار . . يا مسعد . .

نادى صاحبها . عندما خرج ورامها أول مرة لم ينس طوال يومه وقفها .
يداعها تحملان حقبة متضخمة بالكتب . على ظهرها ثوب ضيق تحاسية اللون
غليظة . أما عيناها فهما السبأ فى يوم صيفى حار . . فى كل صباح ينفذ
الصوت إلى أذنيه . عندئذ يخرج . ويظل وقوفه أمام الباب وظهره لها بينما يدير
الفتاح فى القصب الضيق ، وفى يوم من أيام هذا العام دار على المنذرة . وتصيب
عرقه وتوات تق ن ات قلبه كقصر الطبل . بلسان مثل همس . صباح
الخير . طول النهار أحس أنه حمامة خفيفة . . شراع قارب صغير . إشارات
وردى حول رأس حناء يتطاير مرحاً فى هواء ريمى . . صباح الخير . .
وللمرة الثالثة ردت . . لكن ماذا بعد . قال له حسن صاحبه . كلمها
ما تفتش ثمة . لكن البيت والجيران ، ماذا يفعل ؟ الآن لا يعرف ما فعله
سلوى ؟ فى هذه اللحظة بالذات . قام واقفاً . لا بد أن يخرج . . إلى أى
مكان ! ميدان الحسين يزدحم بالعربات . طوفان ضوء يغرق الشوارع
المحيطة به . فى الزحام يستطيع الشئ متخفياً لكن لو التقى به فجأة !

الثلاثة ... جدار أصم يطفح غيظاً وغلا . طعنة بسيطة في الجزء الأمامي من الجسم ولكن يتبه أحد . لكن لو رأى عويضة . هل يعرفه ؟ من سنين . من الصغر . لم يره . لم يخلق إليه . كل صبي في البلدة يعرفه . أما هو فسيه . لا يذكر غير عينيه الخادتين والرقبة المغليظة ... والعبادة السوداء .

الجدّة هجانة .

الله يقطعهم طالع لا يوه . جسمه طويل زى الجمل . كفافه عريضة ورقبته فيها ذراع . طول النهار ماشي رايح جاي في البلد ما حد قادر يلعبه . ما حل مرة من تسوان البلد إلا ومردغ سمعتها في الطين . مكسور الرقبة قعد ورا البت صقية لغاية ما رجعت في يوم من الخلاء وحرقت روحها . داعية تخلس بيه الأرض .

الود السيد .

امسكتي يا جدّة أحسن حد يسعك يروح يدله (يقول له) ... !!

لين زبادى . زيتهم بائع اللبن . كيس بالتأكد بائعاً آخر . اخارة الهواء البارود . الليل المظلم . هؤلاء العصية الملاعين . لو أنهم لم يكسروا المصباح . دخان خفيف . القرن القريب يستعد لعمل المكوجي تقترب فجأة . في هذه اللحظة . تلك الثانية . كأن انفجار دوى امامه . إبرة ثقت رأسه حتى اليافوخ . ضبع غش بطنه وراح يلحس أمعاءه على مهل ولا زال حيا . فجأة ! أدرك أن حياته في خطر . كأنه لم يعرف هذا من قبل . ربما مات الآن . بعد ساعة . بعد يومين . . . حتماً سيحدث هذا . بل إن أى شيء يمكن أن يقع الآن تستحيل البيوت إلى ضباب أزرق فاقع . يطل لسان أحمر مبلل بالللعاب من شق يفتح فجأة في السماء . يتحول الناس إلى ذرات صغيرة . يذبح تحت قدميه ثقب يغوص فيه حتى يصل إلى البلدة المقابلة على الطرف الآخر للكرة الأرضية . أى شيء يمكن أن يقع . انغماس الجسم المعدني في لحمه هو .

عظامه هو . لكن متى !! كيف . أين !! لا يدري . عندئذ يقتض عيته . ولا يظل على شيء في الدنيا . أبداً . أبداً .

بعد التحية . . .

نلفت نظركم إلى أنكم قد تغيبتم عن العمل خمسة أيام بدون تقديم عذر رسمي . ولما كانت اللوائح لا تسمح بالأجازة العارضة أو التغيب المفاجيء . . . لهذا ننذركم بضرورة . . .

مدير شؤون العاملين

بائع يانصيب يطوف بالمقهى والفض بلال الطريق في الخارج يخفى قعة السور الكبير أمام بوابة الفروح . يتشابه الرجال قوف عريبات الكازو الصغيرة . شرب ما تبقى في كوب الحلبة المطحونة . صاح رجل . بصرة !! ضحك شاب . مر الجرسون . يرتدى جاكته حكومية صفراء قديمة حاملاً صينية كبيرة مظلة يأكواب الشاي . ثقت سحابة دخان . للمرة الثالثة ينظر الجرسون إليه . التصق جبهته بالزجاج . . . لا أحد بالخارج . حتى لو دخل هنا ظن نفذ وصاحته بسهولة . هؤلاء المعجائز والشبان لا يعرف واحد منهم لكنهم لن يتركوه يذبحه . . . وعويضة مجرم لكنه جبان . . . لم يقتل واحداً من ضحاياه العديدين وجهاً لوجه أبداً . دائماً تسلل قوته من بين أعواد الدرة . من نافذة بيت . لهذا قتل الكثيرين ولم تثبت عليه جريمة واحدة حتى اليوم . . . في مواجهة الباب صورة قديمة باهتة الألوان مبضعة بهياب الفحم الدفين . رجل يركب حصاناً . . . ياهت الملامح مضيق الوجه . ألف ليل ونهار خطا فوقها . في نفس المكان . الجدار . أمام المدخل . لو أن الأيام تمشي إلى الوراء . ١٩٦٧ و ١٩٦٦ . العام القادم ١٩٦٥ . بعد عشر سنوات نصبح في عام ١٩٥٥ ويكون البرج لم يشيد بعد . وسلوى الحلوة الرقيقة لم تدخل

الابتدائي .. أما أم سيد الشهية فضية ناضجة يترجرج نهداها ، عداها إذا ما نفضت عن شباك بيتها غبارها ، وتضئ أربعون عاما ونحو ١٩١٥ ، ترى من سيولد قبله وبعده ، أي حين يأكله إلى هذه الأيام .. الشوارع الضيقة ، الرجال يشنون تحت البواكي .. القوتغراف فوق منضلة عالية .. زبائن المقهى يتبادلون الضحككات ، المعلم في الصدارة ضخم .. غليظ الشارب .. يفتي شاعر الرماية .. يتوقف .. يترامى الجميع ، من سيغيب ؟ أبو زيد ولا دياب ؟ يصبح فريق أبو زيد ، ويصبح الفريق الثاني .. لا دياب .. في شارع رئيسي ينطلق رصاص محموم يستقر في لحم طوى وحاجر يرتدى أصحابها الطرايش .. الموت التام أو .. بائع صحف يصيح النطائف .. المقلم .. البصير يا جدد ..

أه .. لو يرحل موغلا في البعد أربعين سنة .. لو أنه يملك أسطوانة قديمة تدور على مهل ، تتعثر الإبرة ، تنوء في ملفاتها العديدة .. الأصوات صفراء رقيقة .. هيه يا رائحة الزمن الذي لا يعرف في أي أرض من أراضي الله أوغل وبعد .. أه لو يرحل .. هناك لن يرى عويضة .. لن يلحجه .. الأمان .. الأمان للمتعبد المحكوم عليه بالموت حتى .. رائحة القلب المتهك المخنوق المرعوش أبدا اللوحة صامتة كأنها تقول : سأبيت أبدا .. لن ترجع ألوان إلى زهورها .. صاح رجل معمم .. تكاثف الدخان .. فجأة .. ! أقترّب الجرمول منه ..

.. الأستاذ .. يعنى لو سمحت .. حضرتك .. جارنا ولا .. بلع ريقه .. أي عقارب تنسل لشهر ذبابها فجأة .. ماذا تقصد يا ابن الأفاعي .. لم السؤال ؟ تلفت حوله ، التحى ، كاد رأسه يلامس جبهته .. بصراحة يعنى .. كده جدعته ، يعنى فيه كام زبون هنا متعودين آخر الليل يلفوا كام سيجارة ، حاجة بسيطة كده .. خافين لتكون من رجال الشبة .. وانت عارف الزبائن .. وعلى العموم المعلوم .. لا .. لا .. أنا جاركم هنا .. أنا مش من الشبة ..

أي حفرة وقع فيها ؟ جار لهم ؟ كيف يقول ذلك ببساطة ؟ صحيح البيت بعيد لكنها نفس المنطقة .. ما الذي لا يدريه أن سؤاله لا يجنّى غرضاً أشد فتكاً .. فليضم قرواً ، ثلاث ليال يحيى .. إلى المقهى .. لن يظل الظهور في مكان واحد أكثر من ليلة .. العيون يعرفونه ويعرفون عويضة ، كفت الأيدي عن إلقاء الزهر .. خرجت طرقة الطاولة .. مجذوب في الزكن يحملني إليه .. زحف التل تحت جلده .. فوات الرمل الساخنة في عروقه بدلا من الدماء .. حسابك ! يرقبون ما تخرجه يده ، سقط قرش .. لم ينحن الهواء بارد .. بوابة الفتوح .. سوق اللبحون ، رائحة الحنين الغامض المنعذب .. اللذنة سوداء غريبة .. فوق السور في الجدران حفر ضباط فرنسيون أسماهم منذ مائة وسبعين عاما كأنهم يطلون عليه بخترقون ظهوره بنظراتهم .. حسابك ! وكان الجميع ، كل من في المقهى .. في الشارع ينظر إليه .. أما الهواء البارد فتلجى موحش ..

وأرسل عويضة مکتوباً إلى أمه بخبة قال فيه إنه قرب خالص منك .. وكما أخبرنا بأن تستعد لتقيم مأثما عل أحبها فهو كما تعلمون لم تبع عليه ندابة من أربعين سنة .. فرجاء نطمئنونا بكلمة لأن عويضة جعل الشيطان يركبنا .. ومن عندنا الجميع ..

لو أصحابه عرفوا ما يندته ..

ها .. أصحابه ..

أي أصحاب ، حسن ، لم يغترقا أبداً ، السهر حتى منتصف الليل ، العودة إلى بيتها ، الطريق البارد ، المصابيح في نهاية الأعمدة الطويلة ترفيقها ناعسة ، في العصر قبل انتهاء النهار ، ما أحل شارع الموسيقى ما أن يتجاوزوا شارع الخليج وحموق عربات الترام الخضراء حتى يحوطها الزحام ، صياح الباعة ، فانات ، شرابات ، التاجر بفلس يا جدد البلوفر بثلاثين قرشا ، من المظلة يشترى القول السوداني ، يمسح حسن بكلبات خافقة في آذان القنيت ، عند

العتبة ينتهي الزحام ، بحجرة محروس إلى سوز الأزيكية ، كل كتاب بقرشين ، أدب .. علم .. فلسفة .. كلة بقرشين المكتاب بتقل يا جدد .. رائحة العصر في الطريق .. عربات المدينة تمضي بسرعة .. أصوات موسيقى من دار الأوبرا .. وسط الميدان يقف التمثال الرمادي ، كتلة من الرصاص جامدة وإشارة من فارس النحاس بلا معنى .. إلى أين يا حسن .. تنطلق المياه من نافورة الصغيرة ، الهواء ، الأمان .. يكلمه عن سلوى .. بعد طول تردد قرر أن يكلمها .. خرج من الباب ، كانت ترفع رأسها عل وشك نداء صاحبها ، أوما برأسه ، أحس بها تنظر شيئاً ، فسألها عن مدرستها وأين هي فقالت الخلية الثانوية ، لم يدر ما يقول بعد ذلك ، كيف يدق الحديث من جانب ، سألها عما إذا كانت تذهب كل يوم .. أومات برأسها غفيرة ضحكة .. حقاً لكم هو سخيف وهل هذا سؤال ؟ عندئذ يصبح حسن غاضباً ، غي .. كان السؤال الطبيعي متى تخرجين ثم تتفقدان على ميعاد .. حسن هو القلب الوحيد الذي يقتسم معه ما يتوه به .. أين هو الآن في أي بلدة أي شارع ؟ عندئذ وقف يتأمل الطائرة عن قرب يكى .. عض شفتيه .. لمح الطيار يقف مرتدياً حفته الأنيقة .. سعيد هذا الإنسان الذي ينطلق بسرعة ألف كيلو متر في قضاء نهائى سحيق .. أين أمان الطفولة ؟ فوق البلدة .. لسبب ما تمر بين حين وحين طائرة ، يرفع رأسه .. يجزى يتابعها .. لكم ود أن يصبح طياراً .. دائماً يرسم صور الطائرات في أوضاع مختلفة .. فوق منضدة قهوة .. في مكتبة .. بل إنه يحتفظ بكتاب يحوى كل أنواع الطائرات .. جاء حسن مسرعاً ، عيناه تضحكاً .. الليل حولها غميق أسود ، غريب ، امتلأ الهواء المشرب إلى رتيه بطيور صغيرة دقيقة مناقيرها مثله تنبش الكبد في غيبه الأمين عندما تابع الجسم الصغير يتعد في الهواء لم يصدق أن هذه المساحة الضئيلة تضم (حسن) .. وسنوات عديدة من عمره .. وقتها رأى بلاط الشرفة العريضة سلاسل رفيعة مزقت جسمه ، أثقلت قلبه أطنان الحديد .. قضى الليل كله ، زمانه فوق قبرص ، الآن نزل بمطار أثينا ، بعد أسبوعين وصله جواب .. لن أنساك يا محروس .. بعد شهرين .. أنا سعيد يا محروس .. أرى

كل يوم ناساً غير الناس .. أحسن إليك ولكنى هنا حمامة لا أقيد لها .. ومن شهر لم يصله المطر فربما الطوايع الأجنبية ، لن أنساك ، أبداً فيه .. ذاب حسن في بلاد الثلج والضباب ، لكم اشترى مجلات أجنبية ، ربما رأى حسناً في صورة شارع مزدحم .. أبداً لن يراه ، لا يعرف حسن أى دقائق تمر عليه فتصرع روحه في كل ثانية من ثوانيتها السنين .. لو معه الآن لأقام عنده ، لو سافر معه لن يندى عويضة إليه أبداً ، زملاء مدرسة الصنایع تفرقوا في البلاد وابتعدوا ، قابل إبراهيم ، شاربته كثيف ، انت قين .. لازم نشوفك .. اتفقا على ميعاد .. لم يذهب بالتأكيد .. هو لم يذهب أيضاً ، لو قابله الآن .. وقال له إن عويضة يطلبه ، يتعقبه ، قطع سنيته كيلو متر من أقصى الصعيد ليبحث عنه ، سيدو الخوف في عينيه ، يتطلع إلى الساعات المحيطة .. النواهد .. ربما يطل عليها عويضة من مكان ما ، يسمعها بأذنيه الخادتين .. في حقول الليرة وسط زيشش الريح يسمع بها خطوات الأقدام على بعد أربعين ذراعاً ، سيجرى إبراهيم .. هكذا كلهم عدا حسن ، حسن الذي راح ، نسي حتى الخطابات ، لو أنه سافر معه ، ركب البحر ، يتعد عن الأرض التي يجوبها عويضة ، ينزل في الموانئ ، البعيدة .. يرى وجوهاً غريبة ، نسبات هواء على شاطئ بحر أزرق عميق يبيض كالرئين ، الأطفال كالأرغفة الساحة الطرية .. أصابعهم في أفواههم .. الطائرة تنقل من مدينة إلى مدينة .. سيدات سادق وصلنا .. بعد قليل ستهبط في .. لكن لا أمل في رؤية هذا .. سيظل يرى نفس البيوت ، الشوارع ، الناس يحول بينهم عويضة .. لن يلحق حسن أبداً ، ربما تقض عويضة الآن .. إنه لا يصدق وجود هذه البلاد الغريبة .. صور الجبال المكسوة باللوج البيضاء كاللبن زائفة .. لا بحار واسعة تعجز العين عن رؤية آخرها .. أوهام بحارة عجائز سافروا ورجعوا بلهاء جهالين .. أما حسن فاختطفه الطائر الحديدي ليعوض به في فراغ عتيق ، ليس من المعقول أنه في مدينة يطلع النهار عليها الآن وهو هنا تحت السرير وعويضة بحس المدينة بست عيون وست أذان لا وجود لمدن مزج الربيع فيها ، لا رجال قصار يرتدون القراء يغشون في الثلج .. الصور وهم .. الخيالات المتحركة بهجة مزينة لمثل مسلول .. الحقيقى ، الضلب كالجلبل ، كعيطان القصب ..

الموجود غريضة ينهي كل شيء في لحظة . يحبو الضحكات والدموع وقلوب
الليالي وفرحة القلب عند رؤية سلوى . كل ما رآه . قبل انطلاق المدفع دخل
الحارة ويط الحذاء والتفت إلى الوراء ، لا أحد عند المنحنى قبل القرن ، يقف
رجل عجوز طاقينه تغطي رأسه تنزل حتى عينيه . جاكته بنية اللون تأكلت
عند الكوعين . بشرته ملساء كأنها مستحضر بالدم . يستند يديه إلى صندوق
صغير مضمت الجوانب سطحة زجاجي . قوائمه أربع رفيعة عالية . صاح
طفل ، ألقى امرأة بياء من طابق علوي . هذا العجوز لم يره من قبل . خلق
فيه . عياناً لا تتحركان . مفتوحان واسعتان . لكنهما لا تتحركان كأنه لا يشعر
به . ربما يتصنع . نزل العرق من جسمه . بدأ الصبام له قاسياً قاحلاً . امتلأ
حلقة بفشر سمك ، كاد يصبح فيه من أي أرض هو . هل هذا وقت يبيع فيه
للناس . اندفع فجأة صبي عرّفه . يوسف ابن زينب التي لا تشيع عينها
أبداً . بتعريفه حصية ياعم حسين . اهتز رأس عم حسين . كاد محروس أن
يصرخ خوفاً عندما سمع صوته . صوت رفيع رفيع جداً كخيوط تحيل
ومتسلخ . حصية ولا مسمية . جالت يده داخل الصندوق . أخرج قطعة
الحلوى المربعة بالحبات الصغيرة الصفراء ، عاد بمحلق في الهواء ، على وجهه
ابتسامة سحرية ، استهزاء . وفجأة رفع يده . قبل باطن يده وظهورها عدة
مرات . اهتز دماغه . اندفعت الدعاء إلى قلب محروس . هذه الحركة ملأت
بقشعريرة كالصداع . يوسف الصغير ينظر إليه . انتبه إليه . أمسك يده .
مين ده يا يوسف ، عم حسين . ذي أول مرة يقف هنا . أبداً طول عمره
ساكن هنا . يس ما كانش يطلع من أرضه تحت السلم أبداً . مرة أخرى ،
عم حسين يقبل يده . ضرب الأرض بعذائه ، أغلق باب المدرة جيداً .
عاد يتأكد من إغلاقه . زعق راديو . . . موسيقى كئيبة حزينة . في البندر كان
يقف على سلم المحطة . السلام عريضة والرجال يجلسون القرفصاء . أمامهم
مقاطف وصفائح وصناديق منبججة وقلل فخار . غابرو الميدان قلائل . القهى
الكثير في مواجهة المحطة ياهت الطلاء يتصدره إعلان قديم . . . سجاثر
صمون . معدن كوتاريل . . . ومضت بقرة بنية اللون . سمينة تعبر الميدان
متبهلة . صفرت قاطرة ، نزل هدوء غريب كأنه الصقيع فوق الغيطان آخر

الليل . من أحشاء الجوارى . موسيقى لونها نحاسي . طويلة كأنها آخر زفرة
لطفل يرحل عن البيوت والحضرة . تحفت ، تعلو كالنجيب ، انقبض قلبه ،
منصصت النساء شفاهن . بدأ رجال قصار يسبون أردية صفراء ويجعلون
أبواقاً نحاسية كبيرة . يضعونها على أفواههم لحظات فيحوم النجيب وينبض
صداع القلوب . يخفصونها فيسمع نواح النساء المائيات وراء الرجال .
انقبض عينه عندما رأى الميدان خالياً ، قوقه صبقرة غريبة . أما الهواء فدمسم
كثاء ساخن . في هذه اللحظة دخل القطار المحطة . لا يدري إلى أي البلاد
سافر يومها . ولا أي شخص يجلس الآن فوق المقعد الذي أسند ظهره إليه
يومئذ . أين راح اليوم نفسه . النهار الزجاجي . الآن يقول انه ربما لم يمر يوم
كهذا ولم يمض أحد . أي شيء يعلمه عن حال الجنان المدفون من سبع
سنوات ، اليوم الأول كما هو . الثاني تحيط العيان وتنتفخ العروق ، ينزل
حارس القبر ليسرق الكفن . في الثالث تعلو البطن وتتمو آلاف المخلوقات
الصغيرة لتأخذ نصيبها من الحياة ، شد الغطاء حتى عنقه . تأمل خشب السرير
والمرتبة ، أمن المفقول هذا ؟ في يوم معين ، لحظة يعينها يقمض عينيه ولا
يفتحها أبداً . . . أبداً . . . لن يسمع ولن يرى . . . أما هو فما أقرب اللحظات .

لن يكف الوريد عن صبح السائل الأحمر فجأة . لن تخرج الذبابة الزرقاء ،
ترقرق بجناحيها ليتلقاها ملائكة اليمين والشمال فيسألونها الحساب . غريضة
هو الذي حدد ميعاداً لكل هذا . ترى هل عرف البيت أولاً ؟ أما هذه القبلة
فلم يمر أبعد منها طوال الشتاء . ينتهي رمضان ، لساعاته مذاق غير المذاق .
كم مضى من الليل ولم يبق عنده أكل للسحور يحيى . زيتهم بعد قليل ويشترى
منه سلطانة اللبن . صوت خطوات ثقيلة . وقع رقبته . أصغى . الوقع
ثقيل . لم يتعود سباعة في مثل هذا الوقت . كل ليلة . هل هو الحذاء الأسود
والرقبة الحلالة بنقطة أمسك صغيرة تبيع للمقدم الخليطة أن تنزلق داخله . .
ازدادت الخطوات وضوحاً . أين المخرج ؟ النافذة . الفضبان الحديدية . .
دخل الحذاء ، باب البيت . في القناء . تردد أمام الباب . صمت ! بلع
ريقه . أرغف أذنيه محاولاً التقاط صرير البلاط تحت الثقل المخيف نزل سكوت

قبس .. حد سيكون .. ماسورة ميزر .. أين راح ؟ ربما ينتظر حتى تحرق
الفرصة .. آلهة رقبته المتصلبة .. السرير يتحرق .. خرج من تحت على مهل محاذرا
أن يحدث صوتا ولو ضئيلا .. فجأة توالى صوت عصا تصطدم بجدران
البيوت .. فوق التوافد .. صوت عجوز كالماء البارد في يوم حار شرب إليه :

— وحد الله يا عم ميلد .. يا عم صالح وحد الله .. ياسى سعودى

يا عم تادر وحد الله .. يا محروس أفندى ..

لا .. لا داعى .. قفز ناحية النافذة .. صاح من ورائها :

— عم عبده .. عم عبده

تزل صمت لحظة .. جاء صوت الرجل من الخارج متسائلا .. أجايه
بصوت خال مرهف :

— ما فيش داعى تنده إسمى .. أنا دائما صاحى .. وعيدتك
محفوفة ..

بدا العجب في صوت الرجل عندما أجايه موافقا .. لكن من يعلم ؟ ربما لم
يكن هو صاحب الخطوات .. ربما لم يبتد إلى البيت .. ربما تصادف مروه ..
يسمع النداء .. عندئذ يكون سلم نفسه إليه ..

امض .. امض يا عم عبده ..

— وحد الله .. وحد الله يا نايم ..

توقف حسين المكوجى عن العمل .. سأل صيه :

— مثل محروس أفندى اللي دخل ده من شوية ..

— اه .. أفنكر هو ..

لوح الأسطى حسين بيده :

— نسيت أقول له إن واحدا سأل عنه ، إيفنى فكروا أقول له ؟

— فيه سياخ وكومة وسلة .. وفيه مكرونة بالفرن وكباب وكفتة ..

الدخان يحمل رائحة اللحم الشوى .. الميلة البيضاء الكتابة فوقها
بحروف حمراء متسخة .. مطاعم الحسين .. الجالسون في المطعم قلة .. هذا
العجوز بجوار الجدار .. امرأة بيضاء فستانها أعضر .. ورجل أقصر منها
يجلس أمامها في الطريق الخارجى .. شيان يلوحون بأيديهم يفتنون .. عويضة
لا تأكل الآن في المطعم .. ليس بين الموجودين .. ربما يقف على ناصية
الطريق يرقب الشارع ..

لكنه ليس بالداخل :

— أبوه يا أستاذ ..

لا زال ينتظر .. أى شيء يأكله ؟ من أيام لا يعرف غير الجبة والحلاوة
الطحينية ..

— سياخ .. أرز ..

الرجوء تتابع .. الأصواء في الخارج .. حمراء وزرقاء وتحضراء خادم
القهوة المقابلة يروح ويحيى بسرعة .. الزبائن يتكاثرون .. سحابات البحور
والضباب تصاعد لتعلا الفراغ ..

عربات الباعة الصغيرة تصطف على جانبي الميدان .. المائدة الرشيقة
تطعن الفضاء .. لو وقف فوقها لاستطاع رؤية كل آدمى في المدينة .. في البلدة
يصعد الرجل ليحظى بالبحر من التخييل .. يطلق صوتا ليحذر الحريم في
البيوت المحيطة المنخفضة .. أما عويضة فلما انسرب إلى المائدة واستند إلى
الحاجز الحديدى ! سيحرف أين يخطو ؟ كم مرة تنفس في الثانية ! كيف ينهض
قلبه ! الأمنية التي تحول بعقله .. نوعية الذكري .. أهل البلدة يعرفون أن
عويضة يلم بكل شيء عن صحبته قبل انفضاضه .. عندما قتل الأعور جاد الله
كان قد اختار الترقيت الذي يمدد فيه بين ذراعي امرأته سعدة التي يشتبهها
ويشتبه مصافها .. لن يغيب أى شيء عنه ، هكذا يعلم الجميع ..

تلفت حوله .. الطيلة والزماز من الطرف المقابل للميدان .. طلبة يزعمون .. يضحك شبان حوله .. تشبو ياشبو .. يمزون خصورهم ، نظر إليهم وفرض شفته . كأنه يظف على فترة صغيرة والماء يندفق هائداً من تحتها . إضحكوا هزوا أروافكم يا من يماثل تاريخ ميلادكم ميلاده . التصقوا بالبنات ، أحيقن أنكم يعبدون عن عويضة ؟ لو أصبغت ساعة في معصم أحدكم لتبعه وقطع يده .. لو اشتهى صاحبة واحد منكم لأعطها في وضوح النهار والشمس تغل في السماء ولن يحرؤ أحد على هز أصبح في وجهه .. صاح متأذى العريات .. نزل رجل حول رقبته كوفيه حزام منقطة بدوائر بيضاء .. دار برأسه .. رفع المتأذى يده بالتحية . أشار الرجل إلى البيوت القديمة القائمة عند ضلع الميدان الشمالى :

- إليه ده ياريس !

- دى بيوت يا سعادة اليك .

هز رأسه .. ابتسامة تودد على وجهه المتأذى - أشار إلى المجلوب - حامل وعاء البخور .

- إليه ده ياريس !

- دا بيني آدم ولا مؤاخلة مجلوب يا بك .

هيه ، إلى الحسين ، أين غاب عنه ، من سنين لم يعرف الطريق إلى هذه الهدأة السكونية التي تلقه منذ مئات السنين ، على بعد خطوات منه ولم يدخله ، لم يقبل مأوى الرأس المقصود عن الجسد والتي طارت من كريلاه إلى مصر مدة أربعين يوماً لتخفيها أم الغلام المسكين الفقيرة وتفتشها برأس لينها ، عويضة لن يقبل القدية ولو كانت خزائن قارون وكنوز سليمان الحكيم ، كيف يرفع رأسه وسط الناس ، لا بد أن يمز عشق محروس .

للقصورة مغلقة . فوق الباب الحديدى المزخرف وزود حزام كبيرة ، بالدخول هدوء غريب تقل حتى نخاعه ، في حائط الباب الأخضر خارج المسجد شق لا يروح العطر منه ، قال الشيخ المعجوز إن الرأس سط هنا بعد رحلته

الشاقة . ومن يومها والعطر الحزين لا يفارق المكان ، قال الشيخ الحزين أيضاً لو كشفوا عن الحسين الآن لوجدوه على حاله ، ملأه دغشة . أكد الشيخ ما قاله . ما هو يرى سيد الشهداء ، رأسه الحبيب الطاهر الذى لم يكف عن ذكر اسم الله طوال حياته . يداخل المقصورة يسيل الضوء ناعماً وقوراً ، إنه يرى سيد شباب أهل الجنة ، هذه المقصورة بجوار الحبيب . تحت السقف العالى المرتفع ، هنا وليس في أى مكان آخر لن يستطيع عويضة التحاق به . فليدخل الحبيب يصفح عنه ، يفر له ، إنه ظل سنوات يمر كل يوم أربع مرات أو ستا ولم يدخله بل لم يفكر فيه . الآن لن يداخل المكان ، بالداخل أمان لن يعرفه إلا هنا . بجوار الجسد الذى لم تحف دماؤه ، ولن تحف حتى ينفخ النفخة الثالثة في الصور ، نفخة طوطا أربعون ألف سنة ، يعتبها صمت أربعين ألف سنة ، وينفخ نفخته الثانية ، ثم يحرق نفس الصمت حتى ينفخ النفخة الثالثة . لكن الباب موصد يا سيد الشهداء ، المقصورة مغلقة يا عصب العين ، يا صاحب الدعاء الزكية ، يا ربان السفينة . عويضة يسعى وزاده ،

يقضى رائحته ، يتسمع صوته ، همه ، حركاته وسكناته ، عويضة يقتله في هدوء ، قم يا زينة شباب الجنة ، يا ملجأ الشاة المذعورة من الذئب ، ياتور الأرض ، محروس يتأنيبك أنت ، أبوه ، قتلوا ابنك في حجرك بعد أن متعوا الماء عنك . جرحوك مائة وسبعين جرحاً . فبحوك واحزوا رأسك وداسوك . أه لو يدخل قلن يفارقك أبداً ، ولن يقوم من جانبك وفي كل عام ، في نفس مينعذك ، يقيم الذئب عليك سنة بأكملها حتى تبهث حياً .. لو يدخل .. لو يستكين .. الباب موصد .

المنير الخشى زخارفه صباه .. بكى .. يد تقبض قلبه كأنه حبس صغير تركه أهله ونزل عليه الليل في الخلاء بعد أن دخلوا الملجأ الأمين . قعد بين الرجال . الجميع يحملقون إلى شرفة خشية عالية ، لم ير شيئاً . الجميع صامت خاضع . مال إلى الجالس بجانبه يستفسره ، قال الرجل وكان عجوزاً جدياً .. جيته قديمة . قفاه نحيل ، يضلعه عرقان غليظان جافان ..

مقرىه جديد صوته أحل من صوت عبد الباسط .
 يا .. منذ متى لم يكلم أحداً .. كأنه يحرك لسانه بيده ..
 - يا ترى حيقراً سورة إليه ؟

لم يرد الرجل .. التحف الثقيل بنوء به السقف الملون .. رجل يحمل
 قربة ماء ويمسك أكواباً نحاسية ، تناول منه كوباً تسربت برودته إلى لحمه ، ما
 ألد الماء في هذا الوقت من الشتاء ، نهاية العام ، أوماً الرجل شاكراً ، عاد
 يتبع زخارف السجادة المظلمة المشابهة ، رفع رأسه . الرجل يحمل قربة ،
 ينظر إليه غاضباً .

- تعرفه يا أستاذ .

كالمسرع المتعصب ، بحث في جيبه عن القطعة المعدنية الصغيرة انصرف
 الرجل مبتعداً .. يا كريم .. الكل يحفظ ناحية الشرفة الخشبية المريضة ..
 لا صوت ، وقف ، أى ضجة ثقيلة فوق أرض الشارع ، الطريق منطى
 بالرؤوس ، نزل تحت الرصيف إلى أين ؟ البيت المخبأ تحت السرير ؟
 يتظلم بجوار دورة المياه خارج المدرسة ، ربما عند الناصية . لا يعرف إلى أى
 الناس تنتمي هذه الملامح التي وصفها له حسين الكوجي ، لكن هذا الغريب
 رفض أن يقول اسمه ، بل وسأل عن مبعك دخوله وخروجه .. لابد أن ينتظر
 والزحام سيتلاشى بمجرد عبوره حلوة الوطواط ، تصبح الشوارع وحيدة قاسية
 شرفة إلى الدماء تماماً كما مسجد ميدان الحسين ثاني يوم العيد .. غلوب كل
 هذه الضجة ، كثيراً ما عبره في الليل . يبدو مشحواً خالياً تماماً ، إلا من شعاع
 يقرش رصيف الجامع . يائع لبن يخلق أبوابه . لكم يبدو الحسين وقتها وحيداً
 عجوزاً تنقله الأم سنين طويلة من الخبرة ، أه لو أن المقصورة مقروحة .. ألف
 ألف سنة والرأس لم يخلق به أبداً .. أبداً .. أما عريضة لها آتية ، لن يرجع
 إلى المدرسة سيمضي بين هؤلاء حتى يبدو النهار الأزرق ، حتى حول الميدان ،
 لو سلبوى منه ، أى أمان يحوطه ، أى مشاعر تريحه ، منذ شهر وكانت أنفاس
 الحريف تختصر أمام زحف الشتاء القاسي .. رآها تعبر الميدان بمفردها متجهة
 إلى محطة الأوتوبس ، صمم أن يكلمها ، تردد أمامها كثيراً . اندفع واندفعت
 الدماء من قلبه إلى أقصى أطراف جسمه ، ركبت ، ركبت ، نزلت .. كاد أن

يحاذيها بقرب طله الخليفة الصغيرة . عندها تراجع فجأة ، كان بدأ لطمت ،
 تنأى على المقعد الرخامي وراح يرقبها تنهد . فراعها في فراع شاب . ربما
 يشبهه ، بما لا يقل عنه .. أى عجز ثقيل قلبه . الوقت حصر والشمس فوق
 النيل لا تين . عبر الكوبري . أى وحلة مرعفة كمن موسى مصقول لكنه ؟
 حتى حسن راح ، لو معه لحكى له ما هز قلبه .. لكنه بعيد . وسلبوى ثالثة
 مثل كهوف الجليل ولا أصدقاء .. لا شيء غير وجوه غريبة تمر حوله فاحكة
 زاحقة .. هامة .. حتى التلوة بعيدة .. لا يجرد على الرجوع .. لكن إلى
 أين ؟ هل صدمه أحد ؟ رجل عريض طويل .. جلياب بلدي .. مسطع
 وير الجمل .. إستماعة خفيفة على وجهه ينظر إليه .. لا يذكر ملامح
 عريضة .. لكنها أوصاف للكوجي .. الضف ورائه .. غاصي قلبه .. أين
 الرجل ؟ لا يعرف عريضة . لكنه سينم رائحة .. عريضة قريب من هنا ..
 ربما داخل واحد من هؤلاء .. الخطاب في جيبه من البلدة يقول إن اللعين
 أرسل لأمه بأمرها بتجهيز ساحة على الحال المقتول من زمن لم تعرفها كغور
 ولا نجوع البلدة منذ ألف عام .. أين هو ؟ أين ؟ نزاد اندفاع الناس
 حوله ، فاحول الضلع الشرقي للجامع ، الموازي لحارة أم الغلام . انهم
 معلم شارعهم ضخيم كبير طرفه مرفوعان إلى أعلى .. داخل لهم أسنان ضخمة
 ولسان أحمر يبرز اعترافات صغيرة مريضة .. صاحت امرأة على رأسها صف
 من ريش ، أخرى متى بخور ، صباح مجلوب يرتدى جاكته عسكري قديمة
 طليقة بالألوان والشارات وقطع قماش صغيرة . رفع سيفه الخشبي الأعظم
 والمكتوب فوقه .. لا إله إلا الله .. زحف في الناس .. أين عين الخلد ؟ مد
 شاب فراع . احتضن صديقه .. تراجع إلى الخلف ليتأمل .. يا راجل من
 إمتي ما شفتكش .. حبط البائع على طليقة بنية اللون مزخرفة الحواف . قال
 للشباب الذي يرتدى قناعاً ورقياً يمثل قرصاناً ، حتى نغمتها ترقص أجدع ست
 في البلد . مد الشحاذ يبدأ واحدة سليمة .. مسج عيال وأهمهم يا بك . طوح
 شاب يده فاحتكت برفق بنت قصيرة مثقلة .. تنهد بقوة . شاب أسمر طويل
 يمز وسطه ويلعب حاجبيه .. قال بائع الكتب . بجنيه وعشرين في المية

تفويض يبقى ثنائين .. اللاتفة على السرافق الكبير . دخول عمومي بثلاثة
فروش .. فوق الرصيف اقرب منه طفل صغير أيضا حلو العينين ، قال
بصوت هلمس . عاوز تسوان يا به . ضحك الضوء حول اللاتفة صرخ رجل
مقلداً صوت امرأة . تطايوت رائحة الكباب من مدخل خان الحليل .

والنافورة الرخامية خرساء جف ماؤها . الرجل قريب منه .. لكنه لا يراه ..
أين ؟ صوت المطرية سيلة أم السعد صاحبة السرافق المظل على حارة
الوطاريط ، توقف ضاؤها .. تنابت الأصوات .. والملم .. و .. والاستاذ
وأنا وأنت سلام كبير قوى .. هل يسمع اسم عويضة أبدا ؟ لكنه يعذب .
يعرف أهل البلدة المساكين عادته ، لا يقتل ضحيته مرة واحدة ، يتركه في
متناوله حتى اللحظة التي يهددها هو ، وهكذا يعيش كل مزارع صغير أو
صاحب بقالة أو صاحب جل في البلدة . وهو يظن أن عويضة يطلبه هروجه
على ماله ، لهذا لا يجرؤ واحد على الوقوف أمامه أو ذكر اسمه بصوت
مرتفع .. بالتأكيد عويضة قريب جداً ، لكن أين ؟ لا يعرف ، ربما العينان
الصاحبتان الناعستان ، الصوت الناعم .. الأذان المرهقة .. ابتسامة البائع
الرائقة .. غضب جندى المرور . مساومة البائع .. شهوة المراهق إلى لحم
امرأة ، حتماً هنا .. الميدان كله يعرف ولا يعرف ومع هذا يضحكون ويشابلون
ويشترن الطبل ويرتلون أقتعة الريان بلود .. عويضة هنا .. أليفوا ! أحفا
إنكم لا تعلمون .. أبداً .. أبداً .. حتى ساعي البريد الذي حمل رسالات
الجد أبو الغيط كان لا يبدو عليه أنه يعلم ما تحويه الخطابات ، لونه السياه
لا تبدو من الأضواء .. أه لو أنه في مكان ناه ، لو هناك حياة غير الحياة لو
عاش إنساناً آخر في عالم ثان .

لن تضي غير دقائق وثواني يشق الزحام ، تحمد كل هذه الضجة ، يسكت
الشباب الذين يرقصون التويست ، تظل سيفان النساء مكشوفة بلا حجاب
تغطيها ، عندما يقترب منه يشيرون كلهم ، لكن لن يرفع واحد منهم صوته
باحتجاج ، لكن لا بد أن يتبههم قبل اقترابه ، لا بد أن يوجد شخص ما في هذا

الزحام بحسه ، لم يخلق الله عويضة بمفرده ، لا بد .. لا بد .. دار راسه
تصب عرقه غزيراً بالأسف . من يوقفه في الزحام ، الكل لاه .. يضحك ..
يقنى . أشعر جسمه . زحف تحت جلده لمل شائك يمز هروقه ، تلفت وراءه
وأمامه ، إلى اليمين وإلى الشمال .. نمة ضيابة تظن بجوار أخته ، أي حشرة
يسمع أزيزها في الطوفان ، هي روح أمه أم أبيه ؟ يقولون في البلدة أن روح
اليت ، إذا ما حنت إلى شخص حي ، بدت في هيئة ضيابة زرقاء شفافة
الجنائحين لا يراها ، لكنه يسمع الآن .. ابتلت ثيابه من العرق الغزير ، اعتل
قاعدة النافورة ، عبر المسافة الضيقة التي تفصله عن الزهرة الرخامية التي
تتوسطها .. انتهى يا غابة من رؤوس سوداء ، لا بد أن يعرفوا أي خطر يكمن
بينهم ، يتهدده ، أي سكين تكاد أن تلامس رقبة ؟ لا بد يا غابة الرؤوس
السوداء والعيون والأنوف والضوء الأزرق والأسنان الذهبية ، ووقع الخطي في
جوف الليل ؟ لا بد أن يشعروا به ، يتنبهوا إليه .. رمى جاكته فوق
الرصيف ، لوح يظلمته الشخصية ، زعن بأهل ما يمكن لأوتار حنجرتهم أن
تخرجه ..

— أنا واحد وثنائين ستة وستين .. جمالية .
طوح بالبطاقة ، فليقتطعها عويضة ، فليعرفه ، فليرحمه ، فليقبل إن لم
يحملوا أحداً من الزحام يمنعه فلا مانع بعد اليوم ، ولا عاصم ، انتهى يا غابة
الرؤوس السوداء ، يا معرض العيون للترجرجة الزجاجية .

أشارت سيدة أنيقة جداً فستاناً أخضر قصيراً جداً ..
— لوك يا حليم .. الرجل باين عليه حيلعب لعبة .
ثم مضت ، رمى آخر قطعة من ثيابه الداخلية في اتجاه المسجد ، تكاثف
الزحام ، أشار إليه شيان ضاحكون . الضيابة تظن من جديد أي صوت آخر
سمعه ، لم يدر تماماً ، بكل ما تبقي في خلاياه من قوة صاح للمرة الأخيرة ..
— أنا واحد وثنائين ستة وستين ، أنا واحد وثنائين ستة وستين جمالية ١١

الجميع يحضون وبجموعة شيان يدفعون عقيرتهم بالغناء . شيو يا شيو .. لم
يشعر بوخزات البرد التي تلسع لحمه العاري ، لم يدلع عنه أحد ما يهدده ،

توالى وقع طبل سريع متوتر محموم يوشى بجسم راقصة يتثنى ، كأنه سمع
ضحكة هازلة تخرج من فم سمع أوصافه من حسين المكوجى ، عاد ملين
الليابة ، دفن رأسه فى صدره ، وانحنى حتى كاد جسمه أن يتقوس ، وسمع
عوضه يشق للزحام والفا ، ثقل الخطى لا يوقفه أحد .

هداية أهل الورى لبعض مما جرى فى المقشرة

اطلعت على هذا المخطوط منذ شهور فى خزانة كتب أحد الجوامع القديمة
بالجالية ، وأثارنى بغرابة موضوعه ، إذ لا يت إلى أى من المسائل المتعلقة
بالتقوى أو الشرع ، حيث تضم هذه الصفحات ذكريات أمر السجين الذى
حرف فى عصور المماليك الغابرة باسم المقشرة ، وكثير من صفحات المخطوط
مفقودة ، غير أنى أثرت نشر ما وجدته لتنتشر مافته وغرابتها ، ولم أتدخل إلا
نادراً كذا لاحظت أن المؤلف لم يحدد عصر السلطان الذى تولى فيه أمرة
المقشرة . غير أنى أرجح أنه كان زمن السلطان الأشرف قايتباى . أو الأشرف
قائصوه الغورى ، آخر سلاطين المماليك . ولعل القارىء أو الباحث يجد فى
هذه الصفحات مادة مفيدة وصفحات هامة لبعض مما كان يجرى فى مصر خلال
هذه الأزمان البعيدة ، فخر الله لنا ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا .

رب يسر وأعن ..

أغفر ذنوبنا يا سلطان السلاطين ، واسر عيوبنا يا أرحم الراحمين إليك
نعبد وإليك نستعين ، اللهم صل وسلم على سيد المرسلين الذى كان نبيا وأدم
لم يزل بعد بين الماء والطين وعلى آله وصحابه أجمعين .

أتلعل وجوههم . أداعهم وربما ضربتهم فجأة وصحت فيهم إنه لا أمل لهم
برجى . فالوجه تبدو كربة مخوفة . وإذا أردت أن تجعل رجلاً من المحابيس
الجند يكر كالنساء ويقول أنا امرأة ، فأخبره أن عياله مات منهم اثنين وأن
زوجته طلبت الطلاق منه وتزوجت ، وإذا بنزل الليل تطلع الوظائف ويسمع
صوت أحتحتها عندما تصطدم بالجدران أو أراها تاكل النبق المختطف من
شجرة قريبة . وساعات يصرخ المحابيس من أسفل وتنبعث رائحة كريهة مهولة
تهب في أحيان كثيرة فجأة ويكاد السجانة أن يججوا على رؤوسهم لظاعتها .
ولم يعرف سبب ذلك .

جاءني سجان كبير وأخبرني أن الأمير طيفطاي مقدم ألف أرسل جلة
محابيس لإداعهم عندما . قلت كم عددهم . قال أربعون ولن تخفى ساعة أو
أكثر وكان الليل قد نزل تماماً حتى سمعت جلبة بأسفل . وقفت عند حافة
السور وأنا أتحرق لرؤية المحابيس الجند . هكذا كلما جاء وارد جديد فتمت أن
أراه بسرعة . وأروح الحن من ؟ أعلم . إننى لا أعرف من يحىء إلى المقشرة
إلا بعد تسلمى له ، ومن يدري ، ربما كان أحد الأمراء ، ربما الأمير الدوادار
أو أتايك العساكر نفسه . لا يعلم إنسان في بر مصر والعرب والعجم على
المقشرة . وإذا يكون واحداً (كلام مطموس في الأصل) ماذا يدور بياطه .
وكيف . وكيف يجده نفسه الآن . بعد أن كان في صباح اليوم نفسه . أميراً
عظيماً تدق على بابه الكومات (الطبول) ويمشى الساعة أمام ركبته . وقبل شكه
في الزناجير (الحديد) أضربه مرة واثنين وثلاثاً وأجعله يقاسى في البهدة
والمشاق ما لا خبر فيه . لا يعلم إنسان على المقشرة . أنت أمير . أمير في بيتك
وعلى نساك . وأقول له ربما خربوا بيتك واغتصبوا نساءك ونهبوا شائك
وفماشك وكلها علا الإنسان في مقامه زحفا في إيلامه . هكذا يقول مولانا
وسبحان من له الدوام .

قمت متجولاً فوق السور . الطريق الكبير تحتنا مقطوع الرجل من المارة ،
عليه خلة . فمن أيام ناضى مولانا بالآ يمشى أحد بعد العشاء ولا يتأخر المالك
الطباقي ولا يتزلون إلى المدينة ملتقى الوجوه . ضربت الحجارة بينى ونافيت

فلما كنت قد توليت إحدى الوظائف الغربية في زمان ، التى أخدم بها
مولاي السلطان ، ونظراً لما وقع لى من حوادث غريبة ، وتواتر قد تبدو للبعض
الجملة ولللبعض ظريفة ، ولما كنت أقضى جل وقته في المقشرة ، قلت فلاخط
شيئاً بما أراه وما أسمع ، ومن يدري ، ربما قرأ مولاي أشرف زماننا ما كتبه
فيعرف لى أى حد تفانيت في وظيفتى وقتت فيها الألم ، وكذبت أرى منها
الهلاك ، عندئذ يرق قلبه ، وينعم على بتقدمة ألف أو ربما ذناب من بعض
جوده ، وأعلم غفر الله لنا أجمعين ، أن السجن الذى أنا أمره ، يقع بجوار
باب القنوج قيا بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله ، وسمى بالمقشرة ، لأنه القيم
موضع في كان يقشر فيه الفصح . والعملة والسوقة والمشايخ وجميع أهل مصر
يقولون أنه من أبشع السجون وأشدها هولاً . يقاسى المسجونون فيه من الغم
والكرب ما لا يوصف . والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف بهم
إذا دخلوه . وثو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سراً أو علانية وهم من
بنائه يمتعون ، اللهم عافنا شره ويلاعه . وأسمعهم يقولون هذا فأسفر
منهم ، لا يستبعد واحد منكم نفسه عن المقشرة . ربما اليوم وسط حيالك وإلى
جوار امرأتك ، وفي الصباح في أسفل طباق المقشرة .

وفي بعض الليالى التى أقضيها هنا أضيق بوجودى وينضى ، في النصف
الثاني من الليل يكون المندوه غريباً كاللوت والظلام خيفاً حتى للذين ألفوه .
واسمع أصواتاً لمحىء من الأحياء المجاورة . لا يبين فيها صوت الرجل من
صوت المرأة . ولا تفسر منها كلمة ، أقوم متجولاً حول السور الذى يعلم
البناء . إذ أقترب من منتصف السطح أسمع هيساً . . أصواتنا رفيعة مخطوطة
يقشع لها البدن ، من هنا يبدأ سلم حلزون هابط إلى عصف كبير . على جانبيه
حفر ضيقة في الجدران . لا يتمدد فيها الإنسان على راحته كما لا يمكنه الوقوف
بطول قامته . هذه هى المواضع التى يربط فيها المحابيس ، وربما نزلت من
حين إلى حين يتقدمنى السجانة يثرون السرايب ، وأسأل نفسى ما الذى يفكر
فيه شيخ قضى هنا ما يزيد على سبعين عاماً . أو شاب مضى عليه عامان .

سجناً كبيراً . سألته . . متى يصل الوارد الجديد ؟ قال بعد ساعة زمن . قلت
ألم تعرف بعد من هم ؟ قال إنهم فلاحون . هزرت رأسي بلا اهتمام . هذا
شيء يدير القرف . سألتني أين نضعهم ؟ قلت في القاعة الصغرى . قال
الأربعون مرة واحدة ! قلت نعم .

رب يسر وأعن ..

كل منهم كالمود اليوس أو عصا الخيزران ، ثيابهم مقطعة . . أيديهم
مربوطة إلى بعضها . . عيونهم جاثقة كأنهم زجوا إلى يوم الحشر . لا تملو
منهم ههنا أو أصوات . أما الليل فساكن لا يبدد عدوه صوت . ولئن أنام
في وقت قريب . فلا أعرف بعض أحوالهم قال سجان كبير إنني لن أجد فيهم
ما يسر . كلهم مثيرون للقرف سألت واحداً منهم . ماذا فعلت يا ابن مميكة ؟
طلع صوته متحشراً غليظاً . والله لم أجن ذنباً ولم يتكسر على درهم واحد من
مال السلطان . صفحت آخر على قفاه وتلقى الصفعة بهلوه كأنه يقول . .
إضرب غيرها ورجعني إلى امرأتى وعيالي . ثم قال إنهم كانوا في الغيظ يرمون
البدار ولا يقدرون إلا القرمبان يكسبونهم . ويقترون أربعين رجلاً وشكوتهم في
الجديد . صكت الرجل وصاح فلاح عجوز . جاءوا بنا على أننا عربان
يا سيدينا ، ما قدروا يسكنوا عرباً واحداً من أهل الجبل . . فأمسكونا نحن
حتى يقولوا للسلطان . . أنظر أحضرنا لك أربعين عاصياً . ونحن لم نعص
والم . . دوت حولهم ولحمت أربعة صبية صغاراً يعني أي من المحابيس أن
يسكن مع واحد منهم ، صاح سجان كبير أمراً إليهم بالآل يزعموا في الليل .
لأن السلطان سوف يعرضهم قريباً . ارتفع عويلهم كالنساء . زعفت فيهم
فسكروا . ورايت رقابهم نحيلة جداً وعظامهم بارزة لحمت شاباً عيناه
واسعتان . سألته هل أنت متزوج ؟ قلت إمرأتك شابة ؟ لم يرد . كئفاه
عريضتان . قلت على مهل . لن ترى عيالك أبداً تصور هذا ونحن فيه جيداً ،
ظل صامتاً ، وقلت له إنك أول من ستقطع رقبته أو يوسط على باب زويلة ،
ألا تخاف . . ؟ فقال أنا حزين وبى رجفة ، قلت هذا لن يمنع وأشرت يدي

وعزمت بعيني ، سألتني فجأة ، كم ساقضي في الحبوس ؟ أطرفت لحظة ثم
قلت له أعجب أن تعرف ! لم يرد . قلت . . إذا قبل لرقتك ألا تطلع أو
جسمك ألا يوسط ، فربما تقضي عندنا تسعين عاماً إذا قدر لك أن تعيش هذه
الليلة وربما مئة ، وربما عشرين ، لن تخرج إلا إذا أمر السلطان بذلك ، وأنت
من سيوصل أمرك إلى مولانا ؟ هل تعرف وإلى القاهرة أو أميراً كبيراً حتى يشفعاً
لك عنده ؟ رايت الخوف يخشي عينيه ، قلت لنفسى هذا واحد لا يعرف
ما ينتظره ، فلا أقل له ولا تمن ما يدور على وجهه ولا تخن ما في نفسه . وما هم
بقية الزعر مصغين كان على رؤوسهم الطير ، قلت هذا إذا لم تمت مطعوناً
« بالطاعون » أو لم يمس الوطواط دمك . . . وأعلم أن الوطواط في المقشرة
كالرجل والعقرب كاليفل ، أما إذا شعرت أنا بالملل في أي ليلة فربما جئت بك
عندي لأعربك وأقطع لك « كلام فاحش أثرت حلقه » وأعلم أننا لو فعلنا
ما نريد بك ، تصور ، أي شيء يخطر لنا ، فلن يتكلم أحد ، ولن يرفع رجل
سبائته احتجاجاً ، ولن تعمل عليك امرأة أو تتزوج عليك زوجة ، قلت لنفسى
إنني أعرف تماماً ما يجري الآن في عقله وصدوره ، فلا بحث فيه ما قد يسقطه
ميتاً . سلطانتا نفسه لا يملك أن يفعل مثلاً أقبل . هل يستطيع أن يقول
ما أقول لأى من المحابيس في السلطنة ؟ هس الفلاح المعجوز ، والله يا أمير
ما عملنا شيئاً . . ضربه سجان كبير على وجهه ونزل الصمت فوق الجميع
كالحصية .

وكان القمر يتسحب على حائط السماء غشوقاً مبتور الوجه ، اقتربت من
الشاب عريض الكتفين . طبعاً أنت لا تعرف كل ما عندنا من ألوان
العذاب ، والويل لك لو أشار واحد من أصحابك عليك وقال إنك تجوز مبلغاً
من المال حتى لو عشرة دنانير . . . تكلم وتحوذق وتعصر أطرافك وأصداعك
وتخلع أسنانك وتلدق في فروة رأسك أو نخلع أيزارك ونشرها ونطعمها لك .
لاحظت أن ثبات عيني قد اعتز ، وشفتيه ترنحان . . . قربت وجهي من
وجهه كاد أنفي أن يلامس أنفه ، وفجأة زعفت عليه زعقة عظيمة فراجع إلى
الوراء متعشراً ، فانطلقت الكعة في صدره ككياً هيناً طرياً لكنني أعرف تماماً
ما يحدثه من أثر . وصحت منبهاً إياه وإياهم أنه لن يري لمة أبداً . . أبداً . .

ولن يسمع نداء زوجته إذ يرجع من الغيط . وفي الجب سبى ملامح أولاده وأسماهم . . قلت لهم كلهم وأنا اعتدل في وقتي . . لن تعثر شيمة لكم على أثر .

صحت على سجان كبير فرفع عصاه . وتدافعوا فوق السلم الخلزوني الضيق وهم يعملون كالنساء . . وكلما أوغلوا في البعد إلى أسفل . . ماتت صرخاتهم . وفي الطيفان السفلي سيحاول رجال ربما مضى عليهم شئون أو سيعون سنة أن يعرفوا القادمين من العالم الذي باتوا يجهلون ، ذات ليلة عندما نزلت بغسي لأضع الأمير أقباي الطويل في الحبس . سمعت رجلاً يزعم من مكان مظلم مورنا به يسأل عما إذا كان يوجد عالم حقيقة أم لا . وآخر يسأل عن أحوال الناس ومن أي حي جاء القادم الجديد . . . وتلاحق الأصوات حتى كاد أقباي الطويل أن يموت رعباً على نفسه . . لكنه لم يمت . استندت على السور الحجري بنراعي ورأيت المدينة عليها حملة . . وكانت الليلة وسط بين الخريف والشتاء . وعما قليل تحيى الأمطار وتبطل حتى توحد الأسواق وتسمى المقشرة مكاناً مهولاً مفرعاً . تنبئت إلى أنني لم أصل العشاء فاستغفرت ربى . ومشيت إلى غرفتي . لحقتي سجان كبير وأخبرني أن السلطان سيأمر بعرض هؤلاء الحبوس ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة . لم أزد وطلبت منه سجادة الصلاة .

خبرة

قال ابن سيده . .

السجن هو الحبس . والسجان هو صاحب السجن . ورجل مسجون يعني مسجون . . وقال رحمه الله أيضاً وجبهه يحبس حيساً جفهو محبوس وحبيس واحتبسه وجبهه يعني أمسكه عن وجهه ومنع حركته وخلق جولته وروحاته .

رب يسر وأعن

من ليالي أوفقتي الشيخ مسعود عند حارتي بعد أن تركت بيتي قال ألا تخاف الله يوم القيامة ، قلت استعبد به وإليه ألقا ، هل رأيتني فاسقاً أو مقصراً في الفريضة أو أبغضك عن الزهر أني جلدت في حق ربى ، لا والله يا شيخ مسعود ، قال لا هذا ولا ذلك ، لكنى أسمع أنك تدين المحابيس صنوفاً من العذاب وأنتك تجمع الكثيرين في موضع بضيق عنهم غير متمكنين من الرضوء والصلاة وقد يرى بعضهم عورة الآخر ، قلت كل عمل ولد سوءاته وميزاته يا سيدنا ، وأعلم أن كل ما بلغك كذب من أوله إلى آخره ، قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، طلبت منه أن يدعولى بالمغفرة ، قال اللهم أحجب عنا بلاءك وشرك فضيت وبغيتي منه ، كأنه يظننى أمراً لبرج القلعة ولخزانة شياكل وسجن الفيليم أيضاً والعرقانة ، وما ذنبى أنا . . هل أنا الذي ابتعدت الحبوس أ الحبس أمير المؤمنين وثاني الخلفاء هو الذي ابتدع الحبس في الإسلام ؟؟ وابتاع داراً في مكة يضع فيها ما يرى أنه يستحق أن يوضع ويوثق ، والله ليس غريباً أن تحيى إلى المقشرة يوماً ما يا شيخ مسعود . . . عندما أشتى في السوق والناس حولى يتدافعون في إجماء سوق الليمون . وباعة يصيحون ، وغلجان يهودون . . نهاية النهار وبداية الليل . . تزيد الحركة ويكثر البيع والشراء وفجأة يحل الظلوى والسكون . . كان العالم مات عندما أمر في هذا الطريق يثرى خاطر . . لا يد أن جميع هؤلاء مسجونون إلى المقشرة ويصبحون تحت إمرك . . ليسوا مرة واحدة . لكن كل منهم له دور . . كل عليه علة لا بد أن يقضيها أو يقضى . . طلعت إلى حجري وأنا من الضيق في أمر عظيم . . طلبت إحضار الأمير مغلباى الذي خامر على السلطان وركب جامع السلطان حسن وحاول أن يتبعيت بعرض السلطان ويسطو عليه . . كان داعية . . لا يمرؤ مملوك أو واحد من أولاد الناس أو العوام أن يعترض سيبله . . والله لأفعلن به وأجعله .

(. . . هنا أصاب الورقة تلف جعل الأحداث تتوقف ، غير أن ما يلى هذا لا يعد الأحداث كثيراً عن سياقها الطبيعي) .

.. ولا أدري إلى أين ؟ وسمعت أن أمتل سيفي وأطيح برأس كل من يقابلني . غير أن المصيبة عظمى فهدأت روحي . الأمر لا بد أن يدبر في هدوء . لو شاع وانتفضح لاهتزت رأسي . أي أيام سوداء في انتظاري ؟ كل سيور السلطان على بكلمة . أما أتانيك العسكر نفسه فسوف يركبني فوق بغل بالقلوب ويمررني في القاهرة كلها . إرجموه ، إضربوه ، عذب ولدي ، قتل رجل قطع ذراعي ، خوزقني ، أدخل خنجره المحمي في .. رماني ثلاثين عاماً كاملة لأنه طمع في امرأتى لمحبي ليخلو له الجور وينالها .. الفاسق .. الزاني يا رب العطف . يارب أعز .. يلمطني السوق والعامه .. ويصيح المنادي أمام الركب .. هذا جزاء من لا يتحفظ على حبوس السلطنة وأي حبوس هربت يا خراب ديارى أربعمون فلاحاً لو قتل منهم في الطريق لما ارتفع أصبع ولا اهتزت شفة ، جمعت السجادة ، طحت فيهم ضرباً وركلاً ورايت أبدانهم تكاد أن تنخلع حول رعيهم ، صرخت عليهم أتعرفون أي هول ينتظركم ؟ أنتم أدري الناس بالمقشرة ، ستخلو مكاناً بعيد المثال منكم ، غير أن بعد وقت جمعهم ، لو انتفضح الأمر لوداع الخير ، لقتلتكم أجمعين ، وعقدت يدي أمام صدرى وثقت من الله ألا يرسل السلطان في طلب العربات المفسدين ليعرضهم ، وخرجت إلى الطريق طافشاً على وجهي ، وفي قلبي جرة نار ، أقبل رجال يرفعون ييارق حمراء ويدقون الطبول ، يتقدمهم رجل حول وسطه قماش أحمر يدور حوله بسرعة كبيرة ، والرجل يلف ولا يتوغل ولا يقع ، وكانوا يزحفون في حماس .. الله .. الله .. تمهلت حتى مروا وكان المغيب يقترب ، وعما قليل ينزل الليل فجأة ، هب الهواء بارداً حتى وخز عظامي ، توقفت حائراً والطريق تزداد به الحركة وتعلو ، تذكرت عيالي وامرأتى في البيت ، تمنيت أن أمتطي جواداً يمضي بي ولا يتوقف لكنهم سيدركون ، حرت فيما أفعل ، وصحبت بنفسى .. الثبات .. الثبات .. نزلت ثلاث درجات تؤدي إلى جامع قديم منخفض ، وكان الهواء مقبضاً وقتت خاشعاً وتذكرت عهدهم .. أربعمون فلاحاً .. والأمر لله .

سبحانك أي تبت إليك وأنا أول المؤمنين .. اللهم أعف عنا واغفر لنا ، اللهم لا تظمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم المارقين أرجو رحمتك بقولك - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ذنوبنا كثيرة ، وطاعتنا يسيرة ، كلنا تحت الزلة والتقصير ، يارب لولا قنب اللنب لما ظهرت صفة عفو الكريم ، ولولا تقصير المقصر لما بان ظفران وحلم الحليم ، اللهم أن أعوذ وأستجير بحبيبتك الذي نزل في حقك (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ..

رب يسر وأعن ..

سالت سجاناً كبيراً ، هل راكم الأهالي ؟ هل زعق عليكم المالك ؟ فقال لا صغير ولا كبير أحس بنا ، فالمالك لا يتزلون من القلعة بعد المغيب ، ويدرك الوالي لا يجولون في الطرقات إلا بعد توغل الليل .. ثم من نحن ؟ ألسنا جند السلطان ؟ إسم كل منا يعرفه أهالي البلدة أجمعون .. وفوقنا تجمعت غيوم ثقيلة نامت بحملها السماء ومالت حتى تكاد أن تلامس البيوت .. زعق أولهم عندما طلعني .. ماذا فعلت يا أمير ؟ صفته بالسوط على وجهه .. وبدقت في اليوم للسطليل الأحمر المفاجئ . الذي انتفخ مكان الضربة .. صرخ أحدهم كائنساء .. يا خراب يبي وحيالي وقال آخرون إنهم ماجنوا شيئاً يؤاخذون عليه وأن واحداً منهم لم يفتش مخزوقاً ولم يشوش على إنسان .. وقال بعضهم إنهم أكثر أهل مصر طاعة لكل ما قيل وما سيقال .. فهاذا فعلناه حتى نحطوا علينا فجأة ونحن نبيع الليمون في السوق ونأخذوا جماناً وأحساناً ونشكونا في القيد الحديد ؟ قالوا إنهم غلاة ؟ وإن أهاليهم سيموتون حزناً عليهم ، لأنهم راحوا مصر ولم يعودوا ، أنا لي عشرة أولاد يا سيدنا ، أما أنا فقد وضعت حياتي في قفة الليمون التي حملتها فوق عنفي لأبيعها في السوق ، رحت أمضي إلى ما يقولونه ، وثمة برد وسلام ينزل على قلبي ، لم أتكلم ، الفلاحون الذي أن بهم الداودار لم يكونوا كهؤلاء في الزعيق والصراخ الذين لكن هذا بطبيعة الحال ، الآخرون جاءوا من قراهم مباشرة ، أما أولئك لما أغرب حالهم ، رجل يخرج من بلدته ولا يرجع ، ولن تعرف امرأته ولا عياله ما جرى له ،

وبعد أيام يطلب السلطان عرض العربان المفسدين المتجبنين في الأرض الذين أسره الأمير الكبير ، فاضرب أعناق البعض ويوسط الآخرون وتنتل أجسامهم المزيلة من باب زويلة وباب الشرية ، وقد يتن الواحد منهم ليخيف لحمه ولا يجد من يدفنه حتى يتصدق عليه مؤمن فيدفنه ، ولن تتطلع في ذلك شئان ، ويروح كل منهم على أمره ويخلو مكانه وينتهي خبره ، قلت لهم وكلهم مصغون كأن الصور قد نفخ فيه النفخة الأولى فخرت الأرض جميعها .. أنتم من العربان المفسدين ومهما زعقتم وقلتم غير هذا فأنتم تقطعون الطرق وتهاجون ركب الحج ، ستقولون نحن لمحار ليمون ، نزرعه ونبيعه ، لكن لن يسمعكم أحد ، رحت أتور حولهم أكل جمعوظ عيونهم وملاعهم المزعمية والرجاء المخلوط باليأس فوق الوجوه ، عجباً أهله الرؤوس كلها مستحشى بالقش بعد قليل ، ارتعش جلدي وطاف بلعافى خاطر طردته بعيداً واستعدت من الشيطان الرجيم ، الغيوم الضال حبل بالطر وعما قليل ينزل السيل كالبحار ، صرخاتهم تطلع إلى الفضاء الرسيم حتى لو سمعته الدنيا كلها فمن يسأل أمر المفشرة ؟ تراجعت إلى الوراء خطوة وزعقت على مسجان كبير أن يرميهم في الطباق الأوسط وأن يربط كلا منهم إلى الجدار بثلاثة مراط حديد ، قبل أن ينزل إليهم سأله كم عندهم ؟ فقال إثنان وأربعون ، قلت له وكم كان أسرى الأمير ، قال أربعون ، أطرقت مقدار درجة وقلت له أرسل إلى إثنين ، خلعت خنجرى من جرابه وبرق نصله في الهواء .

هكذا تنهى أوراق المخطوط فجأة وأكاد أكون متيقناً أن هناك أجزاء مفقودة منه ، كل ما أرجوه ألا تكون يد الفناء قد امتدت إليها فاهت عليها . لذا أرجو من هولة ودارسى المخطوطات القديمة إذا ما عثروا على الأجزاء المكتملة لتلك الأحداث الغريبة أن يتكرموا بإرسالها إلى .. حتى أنشرها ويمكن الاستفادة منها .

كشف الثام عن أخبار ابن سلام

يارب يا سائر المؤمنين من العيوب .. يا كاشف الغيوب .. يا من ارشدت قوماً من دون الخلق إليك . ثم وفقتهم للاعتقاد في كل أمر عليك .. اللهم صل وسلم على نبيك سيد البشر .. كاشف الحقيقة وحامي الصدق العائم فوق البحور الغريقة .. وبعد ، أعلم أن سطرت هذه السطور .. لا كشيء إلا ابتغاء مرضاة رب .. وكشفاً لحقيقة إنسان عرفت أخباره عن قرب . قاضي عالم يقامه الأولون .. وذائق مرأ وهجائياً لم يلقه الآخرون . وفي أيامنا تضاربت حوله التواريخ . فثمة من ينسب إليه سوى الفعال . وآخر يعمل سيرته بما لم يجر ولم يحدث وزعم آخرون أنه وهم لم يوجد . ومن يعلم ؟ ربما جاء في قادم العصور من يرغب في معرفة طرف من أخباره . فيكون حديثي هذا هادياً ومرشداً .

ذكر أصله ونسبه .

هو الفقير إلى ربه ، يوسف بن إبراهيم بن سلام ، لا يعرف أبعد من جده الثالث ، وإذا سأله لأجاب ، أنا يوسف بن إبراهيم وجدى سلام ، وكنتي

ابن سلام ، فلا تنافس إلا بهذا ، كما أنه لم يقل لأحد منى ولد بالضبط ولا أين ، يقول إنه سمع أنه تقرر تاريخ مولده بحجج الرواية العظيم الذي مات فيه أبوه ، غير أنه كان يطرق ثم يقول ، لكن أى السن لم نحل من الرواية ، وأشاع صاكر العثمانية بين العامة أنه غريب عن مصر ، فإلى إنه يطمع في ثروات الجراكسة ، بل أن السبب في مروره بالطرقات متوقفا بين لحظة وأخرى زاعقا بأهل صوته عما جرى في النهار من جند ابن عثمان . إنه كان يقيم في عشة قديمة على باب حارة درب الرصاص وعندما شرع العسكر لإزالة أبواب الحارات فوضوا عشته . ابن سلام بلا مأوى فسخط وطش في الطرقات . ويكررون أنه ليس من أهل مصر . وإلا فإين كان وقت خروج التجاريد ؟ وإلا فإين كان وقت أن على طومانباي على باب زويلة . وإلا فإين للعوام الذين يمشون دائما وراءه ، يرجعون ما يقوله . يمحيطون به إذ ينام . لماذا لم يمت إذا كان يبكي ما جرى ! لا يا قوم . لا تصدقوه فهو دجال .

حاشية .

أخبرني من أثنى به : أن بعض السوقة دفعوا عنه خطر العثمانية عندما حاولوا خطفه . وراح ابن سلام يطلق صوته الغريب الذي لا هو زعيق ولا صراخ ولا حتى بين بين ، تراجموا من حوله وابتعدوا في كيكبة الزرد والسلاح لا يجرؤون على الاقتراب منه ، وأطلق العامة صيحات التكبير والتهليل .

فصل فيما جرى له عند دخول العثمانية .

... عندما ثارت فتنة بن عثمان . وجاءت الرسل من الشام بما جرى . لم يعد الرجال يظفون أبوابهم في حارة درب الرصاص . كما أن ابن سلام لم يعد يفلق بوابتها بعد المغيب . كل من أهل الحارة أمام بيته . يجمعون ما يجري . فلاخبار مقطوعة . والقول الذي يبدو مؤكداً . الصباح يصير مكثيا ، في

المساء . كل هذا والناس في كرشة عظيمة . وابن سلام لا يأوى إلى عشته أبداً . وفي هذه الليلة التي جاء فيها رجل نفا بجلاءه من الشرفية وراح يحكي ما جرى ، إقرب منه ابن سلام وبدأ أن يظهره المحرم قد ازداد انحصار . ابن عثمان يحظى الأمان ويدخل بليس . رجاله يطيحون السيف في أهلها حتى قيل أنه قتل فوق العشرة آلاف إنسان من عربان وجند وفلاحين صارت جثثهم مرمية في الطرقات . أما الأحياء منهم فحفظهم العثمانية وباعوهم بأبخس الأثمان حتى إن البكر التي لم تحض بيعت بثلاثة دراهم . هنا زعن ابن سلام متسائلا عن الثمن الذي بيعت به البكر ؟ ثم سأله عن عدد القتل . وأضاف الرجل أن سائر البلاد التي مر بها ابن عثمان كانت تخلو من سكانها حتى إنك لتدخل القرية وتلاقي فلا تصادفك إنسان . تحسر الرجال . واستعاد ابن سلام بريته . . سمعه الرجال يقول : والله لم يجر هذا الحصر من قديم الزمان . إلا زمن البختصر البابل . أصغوا وكان عليهم الطيرة ، لما يقول عجزوز الحارة ؟ ومن هو البختصر البابل ؟ لم يكرر قوله ، راحت أسئلة الناس كحجارة رموها في بئر بلا قرار . بل أذكروا أنها المرة الأولى التي يسمعون فيها العجزوز . طوال سنين لم يفارق عشته . لم يدخل بيتاً ولم يعبر حتى أسوار المدينة . . منذ هذه الليلة لاحظوا أنه يخرج كل نهار . رؤى في أطراف القاهرة وعند صحراء الرميعة . وقال آخرون والله أعلم أنهم شاهدوه في ميدان الريادية . بل إن هناك من أقسم أنه رآه عند سيل علان ، يسقى الجند ويحمل معهم الأتربة . وفي اليوم السابق لدخول الحفكار مدينة القاهرة رجع إلى عشته مغموراً مقهوراً ممزق الثياب . بارز العظام . حتى ظن من رآه أن الصغار رموه بالحجارة . أما الحارة فتزل فوقها الحراب . وزع الأغنياء من أهلها ذخيرهم وفرضتهم وقياشهم على الأماكن للجهولة . ولما من تخاف على نفسه وعلى حرمة وعياله إلى المزارات البعيدة وفشلق الطون . وإن لم يضع هذا فيما بعد . وبدأ لمن تبقوا أنهم يرون ابن سلام لأول مرة في حياتهم . . عيناه اللتان دبت فيهما الحمية زعيفة في جوف الليل . يارب : ونشبهوا إلى أنه لا ينام أبداً . حتى حاروا فيما جرى له وما أصبح عليه . وفي الصباح سألوها عنه . وجدوا عشته خاوية . تذكر البعض أنهم رأوه يصل القنجر في المسجد القريب . وطلع النهار وزافت

الرجل في الطرقات . وفجأة علا صراخ الرقعة . وكانت الكلبة . وهول
النزال والقتل والطمان . ورجة الأرض إذ تنطلق للكلاب الكبار بالبرود .
وانعقد الغبار سحباً قبيحة في سماء المدينة . وبدت البيوت يتيمة .
والدكاكين مرعوشة تنأى . . الأمان . . الأمان . . والحواري كالمساكين في
المجاعة . كل هذا والثناء يعمل عمله . ونظر الأهل من خلف الطيفان
الخلفة . والعصر يرمى في الشوارع وحشة وعظفة . وأغرق الغفوس أم
وحشة . ها هم جند الحنكار يطلقون البندق الرصاص في الهواء . يصرخون
كالبهائم . . هج بلا نظام . ها هم يتوقفون يلجئون البيوت حبثهم البحث
عن المالك الجراكسة . وعلا صراخ الحريم وآلام العيال واستمر النيب والقتل
صعلاً حتى بعد مجيء الغروب والشمس ليس لها من أثر . . والمناذرين في
الطرقات ، إدموا بالنصر للحنكار سليم بن عثمان . لا يخفى أحد منكم
جركسياً وإلا . . ومن ناحية سبيل علان . . وفوق قناطر السباع . خيل للناس
أنهم يسمعون صوتاً يقول كلاماً آخر . عجوز عني الظهر . يبدو في حمة
الغيب . ينكره على فرع شجرة ، يمشي بسرعة كأنه يجري ، هزيل لا يبين
« راح الصالح بالطالع ولعب السيف في رقاب الأبرياء . . طرش العشائية من
أهل مصر في يوم واحد ألف ألف إنسان . . الجثث مرمية عشها
الغريان . . لا تجد من يلفها . . أهدان بلا رؤوس ورؤوس بلا أهدان . .
يا حي يا قيوم يا من لك الدوام راح الصالح بالطالع . . قيل إن الصوت
سمع في الباطنية . بل أن أهالي الجوانية استطاعوا تفسير ما قاله الصوت . وأى
مسافة تفصل للكناين عن بعضها وحاروا فيمن يكون ومن يمرؤ على التجوال
والزحيق وسط هذا الضجيج والمجيج قالوا إنه مجلوب . . وقيل أنه رجل قتل
ولده في الموقعة وذكر آخرون أنه إنسان فاض به الحزن لهول ما رأى . وأقسم
ثلاثة ممن كانوا يجلسون في فسافي السوق قرب ضريح الإمام الشافعي . .
ما هو إلا عجوز معروف لأهالي قصر الشوق عامة وساكنت حرب الرصاص
خاصة . . إنه معروف لدينا من صغرنا نراه . الشيخ العابد الزاهد ابن
سلام . . وأكد شاب أنه اصطدم به أثناء جريه قرعاً . اتاب جسمه عندئذ
رعدة . وأقسم بنية أبيه أنه رأى قم ابن سلام خالياً تماماً من الأسنان . فراغ

مظلم يقطر دماً غير أن أهالي الدرب كذبوا ما سمعوه ، صحيح ابن سلام
عجوز لكن أسنانه سليمة . وقال آخرون إن قمه لم يكن به أسنان ، غير أنهم
تعمبوا كيف يتناشون والموت يمشي على أقدامه في الطرقات لا يأمن أحد على
روحه ، الحراقي تشعل في علة أماكن ، غير أنهم فجأة سمعوا صوتاً واضحاً
أثار الرعدة في قلوبهم ، أخطبهم حتى كانوا يكون ، لا عجب فالناس في أسى
وهم عظيم وجرحهم طوى مفتوح لا يزال ينزف . . الصوت متوحش
وغريب ، ضاع الأمان . . وراح من راح . هتكوا عرض عشر نساء في جامع
المؤيد ، وقتلوا بالبحر غبار عند باب النصر ، أكلوا خيلهم . . القتل والنهب
عمال . . راح من راح . . أطلوا من الطيفان التي غلفت من وقت بعيد .
صاحب الصوت مضى . سمع من يردد ما قاله . . سألوا بعضهم فأكد رجل
رأى المناذري بعينه . هو بعينه ، زاهدنا وفقيرنا . . ١

• • •

ذكر أخبار شهره:

اعلم غفر الله لك أن ابن سلام لم يفرض الشعر طوال عمره أو هكذا قيل
حتى وقعت الشدة العظمى . وحدثت الكارثة . وسمت القارعة . وصال جند
ابن عثمان وجالوا وهائشوا على ناس مصر . وما راعوا لجوامعها ولا لزروعها
ولا لنساءها حرمة . . ونهبوا دكاكينها وقصورها وما أبقوا إلا الجدران ، يذكر
الناس . إن ابن سلام بدأ عندئذ يقول الشعر ، وقد أشاع العشائية أن
الجراكسة كانوا ينظمون له هذا الشعر ليقوله في الطرقات . . لكن أعيرى من
أنت به من أن ابن سلام هو الذي قرض كل ما قاله من شعر . . ثم إن شعره
الذي أبكى الناس وأجرى الدمع أهازير من العيون ، لم يبق منه شيء ، ولو
كان واحد من الخلق كتبه له لبقى منه بعض ما كنا نود أن نورد هنا . يقول
الفاضي بدر الدين بن زيتون — نعمنا الله به أمين — إن إلقاء ابن سلام لإحدى
قصائده استغرق مرة وقتاً ينحصر بين آذان العصر ونزول صفرة الغيب . وهذا
من غرائب الزمان .

• • •

فصل فيما كان يفعله ويقوله :

اقترب ابن سلام الطريق الكبير القريب من السوق . يحيط به من اعتادوا المشي وراءه ، وتسامع التجار والناس والعيال عما ينويه ابن سلام ، و فوق البيوت تجمعت الغيوم الثقالة . . . ولا عجب فقد أمطرت السماء طوال ثلاثة أيام . ولم يكف الرعد في الليل أو النهار كذا البرق ، حتى أوحلت الأرض وصار المشي صعباً ، ويقسم من كانوا على مقربة من ابن سلام أنه لم يرتجف من البرد أبداً ، كما أن ثيابه لم تبللها نقطة ماء . وفجأة وقبل الظهيرة ، علا دق الكوسات والطلحانات وزعق الغفير من بعيد ، وبدأ من نهاية الطريق متولى حبة القاهرة قادماً من ناحية الرملة حيث القلعة ، يمشي أمامه السعاة ، له هيئة ومهابة تكاد تحاكي هيئة الملوك ، قام ابن سلام زاعقاً . . متوسطاً الطريق يا حي يا قيوم وتردد الجميع مقدار درجة في الاحاطة به ، غير أنهم قد أحاطوا به ، وأطل الأهل من الطيقان ، وظل النداء على سائر أنواع البضاعة ، كتفت الطبول ، سكنت الكوسات . . زعق ابن سلام زعقة عظيمة ، أقول وقد عانيت ذلك بغضى ، إن قلب الواقف على بعد ألف متر منه لا يد أنه ارتجف هولاً و رهبة ، تقدم من حصان المحسب ، أنزل يا زيني من فوق سرجك وكلمنى ، وعلم مهل نزل الزينى يتعثر في قفطاته الحرير وجبته ، صاح عليه ابن سلام ، ظلمت العباد وفرضت من الضرائب ما لا يطيقون ، شردت العيال ، وزدت عدد الأرامل وفي هذه اللحظة تصايح الواقفون وراء ابن سلام ، ومعظمهم فلاحون جاءوا من أقاصى البلاد بعد أن سمعوا به ، والآخرين حاقت بهم المصائب فلزموا جانبه ، وأطرق الزينى برأسه ، يا زيني ألم تكن أنت الرجل المقرب عند السلطان الشهيد قنصوة الغورى ! وكنت تقبل يده وطرف جبهته في اليوم مرات ! ما الذى جرى يا عالم ! ما الذى فعلته ! وقمت به حتى نراك اليوم الحبيب المقرب لابن عثمان ؟ ألم تدعو أنت على الختكار قبل خروج الغورى إلى الشام ؟ ألم تشرف على جمع النقود والضرائب ؟ وما لي بك اليوم نصيراً لأهلك عند العثمانية . ها أنت مستمر في فرض المكوس وتريننا من المظالم أنواعاً وأنواعاً . قيل أن الزينى صار يتلفت حوله مذعوراً . . انتابه رجفة .

رما سمع الكلام من يتلفه في اتولى ملك الأمراء ، يا خراب دناره . . لن يلقى المغرب إلا ويشك في قزناجبر ويستم اليوم الثالث . يشك من خلوصه كالبغضبان . . كل هذا وابن سلام لا يكف ولا يهدأ . . أنت كنت معهم عندما هجموا أمس على سكان الجزيرة الوسطى ، طفقوا في بيوتهم ودمروا عفشهم في الطرقات ودمروهم حتى اقتطع جسمهم . كل هذا وأنت معهم . لا تقول إسكتوا ولا ترفع عنهم الأنف ، كل هؤلاء شاعذك وسعورك واستغاثوا بك ، لكنك لم تأبه لهم وهم يا كافر . . يا عدو الله . انتصرت عروفه . . وكاد الدم يخرج من عينيه . . أما الناس خلفه فصاروا يصرخون ويستغيثون ، وفجأة عد ابن سلام يده وجذب الزينى بركات ابن موسى من لحية ، وخلع عياله ، ورماها في الوحل ، ويهدله آخر يهدله ، وهذا لم يفت في قديم الزمان أو حديثه أن ناسكاً أو غير ناسك مرمغ هيئة رجل ذى سطوة وجبروت خاصة كالزنى بركات ابن موسى ، فقد ظل نجمه يلعب وسعده يطلع في زمن الغورى وزمن الختكار ، مما حير العقول وأربك الألباب ، وقيل أن الزينى وعد ابن سلام أن يكلم ملك الأمراء في أمر هذا الخراب ، غير أن ابن سلام لم يصغ إليه ، وتزايد عدد العامة فجأة حتى أنك لو نثرت ذرات الملح فوقهم لما نقلت ذرة واحدة ، وأرعدت السماء فجأة رعداً مهولاً حتى وجفت قلوب الناس بما فيهم عسكر العثمانية الذين تجمعوا عن قرب ، وتهامس العامة وسائر أهل مصر ، أن البارى عز وجل غاضب على ما نزل بعبادك ، انتابت القلوب رجفة و رهبة ، ورفع ابن سلام عصاه ممسكاً بها من منتصفها . زعق نائحا على من مات . معددا من رآهم قتلوا منذ دخول العثمانية ، رثياً أهل مصر الذين انتزعوهم من وسط عيالهم وأرسلوهم إلى بلاد الختكار ، حتى حقائق الفرجة التي حررت ، وإيوانات الجوامع الجميلة التي نهبت عواميدها وأحجارها . وعندما استرسل كاد القوم يشقون ثيابهم ، كبروا وهللوا ، وانطلقت فيهم جرة نار مهولة تقيد ولا تنطق . . صكوا الزينى ورجاله بالمقارع ورغم زيادة الهول وشدة الضجيج ، فقد سمع جميع أهل المدينة صوت ابن سلام نقياً كالزئيق ، صافياً كالبللور برغم تقدم العمر ، وزيادة الهمة ، وشدة الضيق ، والكره .

ذكر أخباره الأخيرة وكيف انتهى أمره :

طاف المشاعلي ثلاثة أيام . راكبين وراجلين . ينادون : بأن الكاذب اللثيم مدعى الزهد والعبادة ، سوف تدق رأسه بالطبر عند باب زويلة ظهر يوم الجمعة ، وليلة أيام ثلاثة علا النواح من البيوت . ويرغم أن الوالي قد حرم النعمى بالدق على الطارات ، غير أن النساء تحت ستار الليل رحن يقعن ويضربن على الطارات حتى الفجر ، لدرجة أن المدينة بأخلها الهول حتى ليشيب من حالتها الرضيع . ولم يجرؤ دركي واحد أن يأمر بالنهي عن هذا ، وقيل أن الجنود الذين أمسكوا ابن سلام وضربوه ، قد انتابهم الندم ، لأن النساك لا يقرّبون ، فرموا أنفسهم من فوق سور القلعة ، وراح غفاف العقول من العامة يقولون إن ابن سلام هارب هائم على وجهه في الجبال . وأن الله سبحانه وتعالى سيمده بجند من عتله ، وأنهم لم يمكوه هربعنه . لكن جاء ظهر الجمعة حيث غلت الجوامع من مصليها ، وخرجت النساء حاسرات ، أما نوافذ جامع المؤيد شيخ ، فقد تعلق الحلق بها ليرقبوا البوابة الكثيرة وما يجري عندها ، وعند ظهور الحمار المربوط إليه العجوز ، سرت مهمة بين الجمع وخرست فجأة ، النسوة لم يطلقن زفيراً مرتفعاً ، ونزل الخراب والموت حتى لتحصه فوق البيوت ، وتكاد تخال مثلثتي المؤيد فوق زويلة تحيلان حزناً وقهراً ، وغلف ابن سلام محبوا جمعاً يبلغ العشرين ، قبل إتهم الذين نهبت بيوتهم في الجزيرة الوسطى ، وشكوا إلى ابن سلام حالهم ، وكان ما كان

طلع ابن سلام فوق المصطبة . رأسه مخلوق ثماما ، جسمه عار إلا من زنط قديم يحيط نصفه الأسفل ، جال بعينه في الجمع الذي احتشد وسكن . صاح فجأة . اقرأوا القائمة ، اهتزت الشفاه وترقرق الدمع خلف الماقي ، وقيل إنه التفت إلى المشاعلي وقال : اعمل شغلك . وجلس الترفصاء ، بينما رفع المشاعلي الطبر الثقيل وأهوى به فوق عظام الرأس الذي انخسف وبدا كومة غريبة في حجم قبضة اليد فوق الرقبة . انتفض الجسم إلى أعلى وقيل ظلي واقفاً مقدار درجات وسرعة هوى الطبر مرة ثانية . وزعق الواقفون جميعاً زعقة

هائلة . وكثر التحسر والأسى ، وقيل إن أحجار البوابة رمت دعاً ولا تزال ، وعاطت النساء عياطاً مهولاً ، ارتجت له القاهرة ، وظل جسده معلقاً فوق بوابة زويلة ثلاثة أيام .

www.liilas.com
منتديات ليلاس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٧٣٦ / ١٩٩٨

٩ - 5775 - 01 - L.S.B.N 977



ومازال نهر المعطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا
نتشبه بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت،

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب
في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحدث في كل العالم الثالث،
ومازلت أحلم بالمزيد من آله الإبداع الفكري والأدبي والعلمي لترسخ في
وجدان أهلي وعشيرتي أبناء وطني مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان ميلارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨